الحُـــــــــبُّ

بين

الهداية والضلال

محمد جلول معروف

إهداء

إلى كلِّ ولي يجتهد في تربية ذرِّية ناجحة ..

إلى كلَّ شابٍّ يريد ألاّ يفقد من السّعادة شيئا ...

إلى كل أسير في كهف الحب الذي دخله مضيئا ثم انطفأت عليه الشموع ..

وهو يبحث عن كبريت ليوقدها ..

إلى كل باحث عن وجه الحبِّ الصحيح دون مساحيق تُزيِّنه ..

أهدي هذا العمل ..

وقصدي الله ولا شيء سواه ..

وَ إِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْــرَ فَضِيْلَــةٍ طوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُــودِ

لَوْلاَ اشْتِعَالُ النَّارِ فِيْمَا جَاوَرَتْ ما كَانَ يُعْرَفُ عَرْفُ طِيْبِ العود

أبو تمام.

الموضوع **الصّفحة**

مقدمة..... 05

الفصل الأوّل:

الصدق أساس..... 09
كلمة حب في القرآن 13
بداية الرحلة..... 20
الحب بين المنزلتين..... 22
الحب الحقيقي

مدخل..... 25
الله أولاوأخيراً..... 27
حب الله ورسوله..... 30
عبرة دائمة في الحب الحقيقي

محنة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهماالسّلام ـ 37
محنة يوسف ـ عليه السّلام ـ..... 40
نساء القصور..... 46

الفصل الثاني:

المحبة بين المؤمنين..... 50
حقيقة الدنيا عندالصّادقين..... 54
رابعة العدوية..... 56
توبة أبي نواس..... 59
«الحب عندالشيخ بوعمامة..... 65
ثمارمحبة الشهيد حسن البنا..... 68
«الحب عندالشيخ بلكبير..... 70
التصوف والشعوذة..... 72
الحب مذاهب..... 78

الفصل الثالث:

الحب والتربية..... 84
كرامة المرأة في قوة الرجل..... 87
أسباب حفظ الكرامة..... 91
الإسلام ينظم علاقة الرجل بالمرأة..... 93
الحياء من الحق..... 94
غض البصر..... 96
سترالعورة..... 96
الاختلاط..... 97
الخلوة..... 97
التوق إلى الآخر..... 97

مدخل..... 99
حبالسعادة..... 101
الحسين ـ رضي الله عنه ـ 103
الأمير عبدالقادر..... 105
سيدقطب..... 109
الحب رزق..... 114

الفصل الرابع:

كعب بن زهير..... 117
الحب وأعراف البادية..... 121
الغزل العفيف..... 124
الاتصال البريء..... 125
الصد والحرمان..... 126
عشق الصورة..... 128
انقلاب الموازين..... 131
جميل بثينة..... 133
المعتمد بن عباد..... 137
الحب بين السبب والنتيجة..... 143
عشق الأذن..... 143
الوشاة..... 143
المنام..... 144
النسيان والتذكر..... 144
اليأس والأمل..... 146
الصلة الوجدانية الدائمة..... 146
من النفس إلى البدن..... 146
الوقاية..... 149

خاتمـــة:

الحبُّ والزّواج ..في قلب الاستفهام..... 152

مقـــدمة:

مهما تكثّفت الجهود في بناء منظومة تربوية حقيقية معاصرة في العالم الإسلامي ، ومهما كان اهتمامها وكفاءتها في العلوم الإنسانية ، فإن النقص يبقى دائما يصاحبها.. ومهما تقاربت المناهج مع الكفاءات الإنسانية فإن المضامين و الأشكال تبقى تخونها .. حينما تترك ثغرات فكرية قد تهدِم كل بناء .. ذلك أن الغزو الدخيل لا ينفذ إلاّ من النوافذ المكسّرة.. حينما يتهاون أصحاب البيت في الترميم ..

ومهما وُضعت هذه المناهج في إطار هُوية أمّته..وغرست فيه أصوله .. ومهما وحّدت البرامج صفوفه ، وحرّرته من الفكر الغربي الدّخيل،فإن واقع البيئة يبقى يعاني من المخلفات والرواسب النّقيضة للفكر الصحيح ..وهذا ما يحصر الفكر في جانبه النظري ويجمّده ، ويمنع السلوك الفعلي .

إن أخطر سلوك نعنيه في هذا المقام ، هو قضية "الحب" المشوّشة في ذهن الجيل المسلم..ففي الأدب يدرس قصائد الغزل بحجّة تربيته على العفة والطهارة والوفاء ،فيشجعه على الحب دون تفصيل أنواعه ودرجاته،و دون تبيين مقاصده..فينحصر الحب في ذهن الشّباب في المرأة ويقتصر عليها .. ونتائجه السلبية معيشة في الواقع من انحرافات ، وآلام ، وأسف على أخطاء لا يغفرها الزمن .. ولم تكشف الحجّة عن وجه العفّة والطهارة التي لا تَرْبِي في النفس طواعية،بل فرضتها أغلال القلب المملوك لأجنبية .. فمع الفشل في الحب تتحول العفّة إلى فساد، والطّهارة إلى نجاسة ..

ثم تأتي الشريعة فتتغاضى عن موضوع الحب والغزل أو تتأفف منه وتنسفه ..وتقصد الزواج مباشرة ..تعرّف المتعلّم بالاختيار وما تواتر فيه من أحاديث شريفة ..ثم تنقله إلى الخِطبة وتعطيه فرصة التعرّف ثم الزّواج وتنتهي به إلى ضرورة

تحقيق المودّة والسّكينة والرّحمة . وكان على دروس الأدب أن تعرّفه بأخطار الحبّ وأنواعه ومراتبه . والتّباعد ظاهر بين المادتين اللّتين توجّب أن تتكاملا في مضامينها ..

إن حساسية هذه الظّاهرة النّفسية تفرض وقتا طويلا في التّوعية والتوجيه بأنشطة مختلفة ودروس متكاملة متدرّجة تناسب فكر الشّاب ..

إن تنظيم عُنْصُر الحب ، وتصفيفه ، و ترتيبه في ذهنية الجيل ينتهي إلى مصالحة حقيقية مع الذّات ، و مع كل أبناء البشرية .. لأنه أرضية السّلم ، وبساط الوئام ، ومصدر العدالة ، ومنطلق قبول الآخر ، واحترام رأيه مهما كان الاختلاف ..

الحبّ الصّادق ، الصّحيح ، هو ملهم العمل و الإبداع ، و دافع قوي للاجتهاد .. و الدّرع الواقي من كل انحراف ...

قناعتنا أن ظاهرة الحبّ إذا وضعت في طريقها السّليم ، قد ترفع أجيالا ، وتخلّصه من عوائق شتّى ، وتجنّبه أزمات نفسية ، وتحرّره من تبعات رواسب تكبِّله في أغلال وهم القلب ،وبراثن التخلف ..

هذه دوافعنا إلى تناول هذه الفطرة البشرية ، عسى أن يجد كلامنا آذانا تسمعه ، وقلوبا تتذوَّقه ، وعقولا تغربله ..و تصفِّيه من الفكر الدخيل ...

وقد ركزنا في منهجية بحثنا هذا المتواضع ، على شخصيات متباينة اشتهرت بالحب وعايشته إنْ في حالة النّجاح أو حين الفشل .. ليعرف الشّاب أي طريق يختار في الحياة .

دعنا أيها- الفاضل - ننطلق - في فضاء الحب - من القاعدة القائلة :وراء كل خطيئة جهالة وضلال ، ونبحث معا عن "العلم بالحب" عسى أن

نهتدي إلى منهجية سليمة تضبط الحب في نفوسنا ، وتوجِّهه إلى هدف نبيل في حياة الإنسان..

وليقرَّ المسلم في نفسه مسبقا أن الفكر الصحيح السليم هو ما انضبط بضوابط الشريعة الإسلامية ، و ما سواها من مذاهب فهي باطل ، ولا تنتج إلا فكرا سقيما ، بهلوانيا ..

و أنّ سعادة البشرية في صوت الحقّ .. والحقّ اسم من أسماء الله الحسنى ..

وقد تتساءل : هل من نظرية للحب في الإسلام ؟

إنّ الحبّ متداول ومتبادل بين الله وعباده المؤمنين ، والتعلّق بالله في الحركة والسّكون هو الّذي يفيض حب الموجودات بقدر ونظام .

و اللاّحب يغشى سُرادِقه قلوب غير المؤمنين بالله...

والشريعة الإسلامية حفظت مشاعر المسلم ، ووضعتها في طريقها السّليم ، فلا حبّ إلا بنيّة الزّواج ، ومباشرة عملية الخِطبة حتى لا يقع الشابّ فريسة للمكر والخداع و...

وقد فضّل الله الإنسان على سائر الكائنات بالعقل ، وابتلاه بحرية الاختيار بين متناقضات الحقّ والباطل ..

إن أحبّ الموجودات الدنيوية فقد خضع لهوى نفسه ، وانساق وراء مغريات الدنيا،وصرف نظره إليها وعكف عقله عليها..أحاط به سياج سجنها ، ولفّته بحريرها الزّائف .. حتى يفرغ قلبه من ذكر الله ويكتب مع المشركين .. عبد أهواءه ..

وإن أحبّ الواجد ، فسيظهر الحقّ في سلوكه ،لأنه يعمل معه سبحانه ، حتى يفيض ذلك الحب على سائر الموجودات فيكون بقدر ، وعناية و قبول ورضى من الله ..

أؤَكِّد فقط، أن القارئ الكريم، لا يستطيع فهم الموضوع بمجردّ تصفّح الكتاب، ولا الحكم على هذا العمل إلا إذا تابعه بفكر ناقد لتوفّر المادّة الخام عنده، وهي كثرة التّداول والإطّلاع على الموضوع.

اللَّهم ألهمنا و ألهم شباب المسلمين العلم النافع

الذي نميّز به الطيب من الخبيث.

الصدق أساس :

الصدق بذرة يزرعها الله في قلب من يشاء من عباده الذين أحبّهم .. فضيلة إذا استخدم فيما يرضي الله..هو منبت قلوب الأنبياء -عليهم السلام - وروضة الصالحين ، منها يقطفون ثمار غذائهم الروحي ، وفيها يتنسمون رائحة أزهارها العبقة الشذية ، التي تملأ الكون نقاء ، والتعلق ببارئهم في صفاء وجداني طليق ، فسيح الأرجاء ...

وفي حالتيه المتناقضتين ، يبقى الصدق دليل القناعة بالسلوك الممارس ، وسبيل النجاح أينما اتجه صاحبه..إذ لولا الصدق لما تضاعفت جهود الفاعل ، ولما تكثّفت قوّته ، ولما اتّقدت عزيمته ولما ترسّخت الثقة في نفسه ..

والصدق المنضبط بضوابط الشريعة الإسلامية ،ينتهي بصاحبه إلى قمّة الصّفاء، ومنتهى الطّهارة ، وكمال العفّة..لذا حضّ الإسلام على الصدق ، فقد تكرّر ذكر هذه اللفظة كثيرا في القرآن الكريم ، إذ به فاز الفائزون في الآخرة ، وخُلِّدَ اسمهم في التاريخ .. وقد ألحّت عليه السنّة النبوية الشريفة ،وذلك معيار حقيقي لهذه الصفة الحميدة المهمّة في اعتناق الحق والعمل به . حيث توعد الله الصادق بدرجات عالية في الجنة ..ولشدة تصديق أبي بكر . رضي الله عنه . للرسول . صلى الله عليه وسلّم . لقّب بالصِّدِّيق بصيغة المبالغة تكريما له وتشريفا ، ومدحا للصدق وتبجيلا ..

والصدق وثيق الصلة بنية الإخلاص ، سواء في باب الفضيلة أو باب الرذيلة ...ويكفي في مجال الإيمان أن الدعاء أو العمل أو الصدقة لا يقبل من صاحبه إلا إذا خلصت النية لله.. فالعبادة تكون دون تردد أو شك . ومادامت العبادة شاملة لكل حركات وسكنات الإنسان فواجبه أن يلتزم الصدق في كل أحواله ويؤسّس عليه حياته .. حتى يصير عادة مألوفة لديه..

وغير الصّادق في أحواله و أفعاله لا ينجح في شيء يمارسه ...

لهذه المعطيات اهتمت النظم التربوية الإسلامية ، ومختلف الحضارات القديمة والحديثة معا بخصلة الصدق ، ذلك أن رقي الأمم أو انحطاطها رهين بمدى صدقها ومطابق لمستواها قوة أو ضعفا ، لذا كان أبغض صفة خلقية إلى الرسول . صلى الله عليه وسلّم . هي الكذب المناهض للصدق لأنه يقلب الموازين ، فيجعل من الحق باطلا ، ومن الباطل حقيقة واقعة ..حتى أخرج الكاذب من زمرة المؤمنين ..

وقد جعل الصدق في المعاملة من النوايا التي يتأسس عليها تواصل الفرد مع الآخرين. ووصفت طائفة غير مسلمة - في مقام الذم - بالحيلة والمكر والخداع ،لذلك فالمحتال الماكر ، المخادع ، لا يكون إلا منها ..

وقد قال عمررضي الله عنه . في هذا المقام:

" لأن يضربني الصدق وقل ما يفعل ، أحب إليّ من أن ينفعني الكذب وقل ما يفعل ." (1)

و يبدو أن الغرب في العصر الحديث كانوا أوفر من المسلمين حظاً في تطبيق ما يرونه صوابا من أخلاق،إذ لولا صدقهم في الاجتهاد والتنظيم والعمل ، ما بلغوا هذه القمة العلمية والقوة المادية الرادعة لكل نقيض مغالب.وحيث كان الفكر يسبق العمل ويُنظّرَ له،وحيث كان مفكّروهم قدوتهم،كان المقتدون يصدقون في تنفيذ توجيهاتهم ...

---

(1) تسهيل النظر .. الماوردي ص 70.

ففي هذا الإطار،نذكر على سبيل المثال لا الحصر،المدرسة الأدبية الرومانسية التي نادى مؤسسوها:"بضرورة الصدق في التعبير عن الذات"، وكذا الواقعية :"ضرورة تحري الصدق في التعبير عن الواقع الاجتماعي المعيش ".

فتعلموا الصدق مع أنفسهم فلا يخدعونها بالأحلام البرّاقة ، واتّباع ميولاتها إلى التراخي واللهو حينما يتعلق الأمر بالمصلحة ، ثم تعلّموا الصدق في تعاطي أحداث الواقع ، والتكيف الحقيقي مع حالاته الاجتماعية المختلفة .

ويبدو جليا أنهم ترجموا القيم الإسلامية إلى جانب العلم ، فانتفعوا بها دون عقيدة ..

ولعل هذا الانضباط هو الدافع إلى تحلّيهم بدقّة التنظيم .فالصدق إذن في ممارسة الحياة بكل تناقضاتها ، هو سّر تفوقهم .. إذْ نسبة النجاح ثمرة تترجم نسبة الصدق ...

فقد توسل الغرب الصدق مع النفس في تحري المصلحة الخاصة والعامة، فكان ضمن فلسفة حياتهم الوضعية التوافقية سبيلا لبلوغ غاياتهم الدنيوية ..

والمجتمع الإسلامي لا يصير الصدق - ضمن فكرهم الإسلامي- فضيلة إلا إذا مارسوه في إطار الأوامر والنواهي الشرعية ..وقد جعله معظمهم رذيلة حينما اتّبعوا الغرب في عبادة مصالحهم باتخاذها هدفا ينشدونه ، فتشتّتوا فرقا متناحرة ، وتضاربت مصالحهم ، وتناقضت معاملاتهم ..

والحقيقة عند المسلمين مشتقة من الحق .. والحق اسم من أسماء الله الحسنى : أي على المسلمين الصدق في إتباع الحق ...

ولهم الحجة الدامغة في قصص القرآن الكريم ، الذي يُبيّن لهم بوضوح ، في كل قصة ،أن الأنبياء- عليهم السلام - الذين هم قدوتنا ، مارسوا سلوكاتهم

أثناء تفاعلهم مع الأحداث القصصية ومباشرتها في عمقها وهم صادقون في تحري الحق ، بتشبُّثهم بأهداب عقيدة التوحيد التي تجعل الصدق في إرضاء الخالق هو هدفهم الأسمى .. ووسائلهم في ذلك لا تكون إلا شرعية شريفة .. فعايشوا أحداث الفتنة وكان لهم دائما النصر المؤزر ، والفوز المضفر .

وسّر النجاح في حياة المؤمن الأبدية،لا يرفع ستاره فيكشف إلا إذا صدق مع نفسه فألزمها اتّباع الحق،وقمع نزواتها..وصدق مع الله فأخلص له العبادة بمفهومها الصحيح في كل أفعاله و أقواله..وصدق مع الآخرين في المعاملة ..

نطلب من القارئ الكريم ، أخذ هذا العمل المتواضع المقروء تطبيقا نموذجيا في كشف عيوب مضمونه ، بكل صدق ، دون أحكام مسبقة ، ثم توجيهها إلى مؤلفها ، حتى تعمّ الفائدة جميع الصادقين ..

كلمة " حب " في " القرآن " :

الحب فطرة بشرية أودعها الله في خلقه..فضيلة إذا وظّف في موضعه الشرعي الذي نصّ عليه المنهج الرّبّاني..رذيلة إذا استخدم فيما يهلك الإنسان ..

الحب شعلة متّقدة .. من نور .. أو من نار ..

فهو طمأنينة وسكينة ونشوة ،وتجمّع للقوى الروحية ،وانتعاش جوارح ، ورغبة في الحياة ، ورضى وحيوية عند الظفر بالقرب من المحبوب ..والشعور بمشاطرة الطرف الآخر نفس المشاعر .. ليتمّ الاتصّال الروحي الدائم .. فيكون نورا يضيء شعاع المتعة، ووميض اللذة...

وهو توق ونزوع وحنين ، وشوق ناتج عن حرمان يضيفه البعد أو الصد على فضاء المشاعر بعد حدوث علاقة المحبة ، وتسّرب أحاسيسها في كيان المحب .. فهو نار تقذف شعلة الألم بتشتت الروح وانشطارها ، وما يصاحبها من سقم جسدي واحتراقه حتّى يتبدّل لونه وبشرته ..

ولأهمية الحب في حياة الإنسان الأبدية ، ذلك المخلوق المبتلى بحمل الأمانة ، أثناء تعامله مع الله ، ومع النّفس ، ومع باقي الموجودات..من إنسان ، وكون ، وحياة .. أخصّ الله ذكره بلفظه الصريح في حوالي سبعين (70) آية ، تكررت فيها كلمة الحب أكثر من مرّة في بعض الآيات .

وقد خلق الله الإنسان مختارا بين الكفر والإيمان ، فإن اختار الإيمان ، عمل في جهد نفسي،وهو دائم التفكير المستمر في كيفية تطبيق الأوامر والنواهي الواردة في الكتاب والسنّة في جوّ من النشاط والحركة وحيوية الضمير ، ويقظة العقل والوجدان .ولئن كان قد رفع عنه الخطأ والنسيان وما استكره عليه ..

لذا تجد فعل الحب بالإثبات للمطيع " و المحب للحبيب مطيع " :

" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " البقرة 195 .

" وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " آل عمران 148 ،المائدة 13 – 93 .

" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" البقرة 222 .

" وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ " التوبة 108 .

" فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" آل عمران 76 .

"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " التوبة 4 – 7 .

" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " المائدة 42 ، الحجرات 9 ، الممتحنة 8 .

" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ " الصف 4 .

" وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " آل عمران 134 .

" وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ " آل عمران 146 .

" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ " آل عمران 159 .

" وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي " طه 39 .

المؤمنون و إن كانوا نسبيا يحبون الموجودات ، فهم أشدّ حبّا لله : " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ " البقرة 165 .

" يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ" المائدة 54 .

" لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ " الأنعام 76 .

" فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي " ص 32 .

" وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً " الإنسان 8 .

حب الله يأتي مقرونا- عند المؤمنين- بشرط إتباع الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . في أقواله ، وفي أفعاله :" قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ."آل عمران 31 .

" وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ " الحجرات 7 .

والمؤمنون يحبون ما يرضي الله، ويدعون إليه :

" إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ " القصص 56 .

" مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ" آل عمران 152 .

" قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ " يوسف 33 .

" وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا " الصف 13 .

" أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " النور 22 .

و المؤمنون يحبون بعضهم : " يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ " الحشر 9 .

وبيّن أن في الحبّ بلاء :

" وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ " البقرة 216 .

" هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ " آل عمران 119 .

" لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ " آل عمران 92 .

وينكر على الإنسان تفضيل موجوداته على حبه في مقام التوبيخ و الوعيد:

" قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ " التوبة 24 .

الناس عامّة رسبوا في حب الموجودات :" زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ" آل عمران 14 .

" إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ " التوبة 23 .

" وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ " البقرة 165 .

" وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ" الأعراف 79 .

" وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا" آل عمران 188 .

" إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ " النور 19.

" فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى " فصلت 17 .

" أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ " الحجرات 12 .

" كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ " القيامة 20 .

" إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ " الإنسان 27 .

" وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً " الفجر 20 .

"وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ " العاديات 8 .

" وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا " يوسف 8 .

اليهود والنصارى ادّعوا حب الله باطلا:" نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ " المائدة 18.

إتباع الهوى والإسراف في الترف هو الذي يوقع في علاقات غير شرعية

" قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً " يوسف 30 .

و تجد الله ينفي حبه للعاصي :

" إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " البقرة 190 ،المائدة 87 " إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " الأعراف 55

" وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ " البقرة 205 .

" وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ " المائدة 64 " إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ " القصص 77 .

" وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ " البقرة 276 .

" فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ " آل عمران 32 " إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ " الروم 45 .

" وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ " آل عمران 57 - 140 " إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ " الشورى 40 .

" إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً " النساء 36 .

" إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ " لقمان 18 .

" وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ " الحديد 23 .

" إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً " النساء 107.

" لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ " النساء 148.

" إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " الأعراف 31 .

" إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ " الأنفال 58 .

" إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ" القصص 76 .

" إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ " الحج 38 .

كلمة "حب" في القرآن الكريم،توجه المشاعر البشرية إلى مدلول خاص ، في نسقها التعبيري ، لتشمل في عمومها كل ألوان معاني الحب بفضائله ورذائله .. مباحها .. ومحظورها فالحب سلاح ذو حدين .. إمّا للإنسان أو عليه ..

ولم ترد لفظة حب بين الجنسين في القرآن إلا ترجمة للزنا:

"قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً"يوسف 30 .

أمّا ما بين الزوجين فتجد : الرحمة والمودة والسكينة ..

بـــداية الرحلة :

البُغْضُ والحب فطرة بشرية ، يسري في دم المخلوق منذ ولادته .. فهو يحب بالغريزة أبويه ، فالمحيطين من حوله يحبهم إن أحسنوا إليه ويبغضهم إن أساؤا إليه .. ويمقت ما يتعارض ومزاجه وطبعه ورغبته .. ويتعلق بما ينسجم مع سليقته وذوقه ..

وهو يتدرج نحو البلوغ .. وهي أخطر مرحلة ..وهو مازال حدثا يصاحبه التدرج مع الانسلاخ من غمد الأهل و الأقارب و كل الموجودات إلى حب خاص .. الشوق والحنين إلى الطرف الآخر فيبدأ بالإعجاب بمظاهر خارجية أو داخلية أو هما معا ..

و لما كان يحب الإطلاع على كل حادث يلم به .. فقد يفكر في الطارئ الجديد عليه، فيجد المشجعات من حوله كثيرة .. بيئة كلها تدعو إلى الحب ، دون تفسير الظاهرة أو تحديد وقت لها .. الأفلام المسلسلات ، النشر و الشعر،الأغاني..بل ما تكاد تذكر كلمة " حب " حتى يختصرها السامع في علاقة ذكر بأنثى ، باقي المعاني تغيب ...

يلتفت إلى أبويه أو أصحابه وكل المحيطين به ،فلا يجد إلا القرارات الجافة التي لا تروي ضمأه ، فلا تقنعه ... والدليل ملاحظة احمرار الوجه من الخجل ، عند ذكر كلمة " حب " .

هل الشاب في مجتمعنا الإسلامي تشرّح له ظاهرة الحب،وأنواعه و درجاته ، وكيف يكبت مشاعره ويكبحها حتى يضعها في إطارها الصحيح ،حينما يصير قادرا على الباءة ،أي توفير شروط الزواج ، فيختار من يشاء ، ويدرك السعادة ، ويعيش الصدق والوفاء..ويكتفي بما لديه ..و لا مخرج له إلا بتربيته على عقيدة

التوحيد الصحيحة منذ صغره ،التوكل ، و الإنابة ، الصبر و الرضا بالحال ،و القناعة بما يملك ... و إلا فمن هو الشاب الذي يظله الله يوم لا ظل إلا ظله ؟

إن تاريخ البشرية الطويل مليء بحكايات العفة، وحوادث الفساد.. فماذا جنت البشرية؟

لم تجن إلا الأمراض النفسية من حب الأجنبية ..

ولم تجن إلا مرض الإيدز من الممارسات الجنسية غير المشروعة ،وأبشع من ذلك ..

أما ما يسمى بالحب العفيف،فغالبا يكون عن بعد،وقد يكون حواراً بين حبيبين مزعومين ، وعند الفراق يرمي الحرمان سدوله على نفسية العاشق ، ويزيد تعلقه ، و يقضي حياته،ويختصرها في مأساة...

الحب بين المنزلتين :

فلسفة العالم الغربي تقتصر على تحقيق السعادة الدنيوية .. و لا ترى جنّة الدنيا إلا في إشباع الأهواء النفسية وبلوغ اللذة ..ومنتهى هوى النفس أن يقيم الإنسان علاقة حب مع طرف آخر يحدث التوازن ،ويوفر الاستقرار .. فهو عنده هدف سامي .. وهذه نظرة ضيقة للوجود ..

لذا تجد الألم يحاصره من كل جانب ، إذا لم يجد من يحبه ، أو فشل في إقامة علاقة غرامية أو فقد الطرف الآخر ..

هذا الألم النفسي ينعكس على الجسد ويسبب أمراضا حصرها الأطباء في أن كل الأمراض النفسية - تقريبا - هي أمراض حب ..و الفشل في الحب تنتج عنه أمراض عضوية منها الانهيار العصبي الصامت الذي يقتل المشاعر داخليا ، ويفقد الدنيوي حيوية الوجود ، ثم تكتسحه الكآبة والإحباط .. ويندفع إلى الانتحار .. لأنه فقد سبب وجوده ..

وقد يسبب له قلق الفشل أوجاع المعدّة ،وتشنج العضلات ،البكتيريا ، الطفيليات ، الفيروسات ،الكلاميديا،السيفليس الزهري الذي كان يعتبر في مطلع ق 20 أخطر من الأيدز ..ومن الأمراض الجنسية البكتيرية - أيضا - الفونكوك ومرض الانتلوكوك الذي يؤثر على الإنجاب ..

وهناك أمراض أخرى غير محصورة في هذا المقام أهمها : السيدا أو الإيدز .. ذلك أن الحب عند الغربيين منتهاه العلاقة الجنسية ..

ولم يجد علماء النفس الغربيون حلاّ سوى أن ينصحوا في علاجهم لموضوع الحب المزعوم كما يذكر أحد أعلامهم : ألاّ نتعلق بشخص واحد نجعله هدفنا

السامي الوحيد .. ثم إذا انفصلنا عنه ، هدّنا الانفصال ، وأغرقنا في لُجّة المشاكل النفسية ..

إذن ينصحون بالمشاعية ، وعدم الصدق ، و تعدّد الأحباب .. فانتهوا بنصيحتهم هذه إلى الإباحية الجنسية ، والجهر بالمعصية..فأي ميوعة بعد هذه ، وأي عقاب ينتظر بعد الأيدز .. ؟

وكان علينا - نحن المسلمين - أن نسمّي الأمور بمسمياتها ، ونقول هذه ظواهر " زنا " وليست حب على الأقل ..

العقيدة الراسخة في باطن النفسية المؤمنة أن الله هو العاطي المانع ... يعطي الكافر ما يريد أن يعطيه وهو عليه غاضب ..ويعطي المؤمن ما يشاء أن يعطيه بقدر..ويؤخر الجميع إلى يوم تبلى فيه السرائر ليكافئ ويعاقب .. فمن شاء في الدنيا منحه الحب .. ومن شاء منحه المودة والسكينة .. ومن شاء منعه من كل شيء .. ومن شاء جعله حصورا ، هكذا اقتضت الحكمة الربانية ، ليصير الحب رزقا كباقي الأرزاق يتفاوت فيه الناس ..

من خضع لهوى نفسه ، أَسَرَهُ الحب ، وسيطر على عقله ..وانتهى به إلى الخَبْل والجنون والهلوسة .. ومن حكّم عقله في حياته ، قدّره الله ووفقه في توجيه أهوائه وكبحها ..نجا بنفسه من الهلاك وادّخر للآخرة .. تنضبط أهواء المسلم بضوابط الشريعة الإسلامية .

إن العالم الإسلامي واسع الوجود في النظرة إلى الحياة..الدنيا في مفهومه مجرد متاع وابتلاء ..والآخرة جزاء ..الدنيا قصيرة..والآخرة مستقر .. ذلك أن الله هو منتهى حب المؤمن ورسوله. ويفيض هذا الحب ، حب الموجودات كثمرة لهذا التعلق والارتباط الروحي .. الله غاية .. وغيره مجرد وسائل تقّربه إليه سبحانه ..

لاحظ التناقض التام ،والبعد الشاسع في النظرة إلى الوجود بين هذا وذاك ..وشتان بين إنسان جعل الخالق أنيسه..و إنسان جعل المخلوق أنيسه .. لذا نقول يستحيل أن تستقر أُمَّة و تتطور (بإديولوجيتين) مذهبين متناقضين .. لابد من مغالبة فكرية .. ولابد من ترسيخ الأصيل في المجتمع و القضاء على مخلفات الدخيل ..

ولنا في تراثنا الإسلامي نماذج من شعراء،وقعوا أسرى في سجن هذا الحب،فتفتقت ملكاتهم الشعرية لا تنطق إلا بالهوى..لنا فيهم دروس وعبر تغنينا ..

وآخرون صحّ فهمهم لرسالتهم في الوجود ، فسعدوا دنيا ..ودلّت طريقهم على سعادة في الدّنيا والآخرة لنا فيهم القدوة ..بهم نتأسّى ونتّعظ ..

إن هذه الأخطار الناتجة عن الحب العاكسة للواقع الصّحي للإنسان الغربي ..هي الداعي إلى تعداد المعاشرة،ونبذ الإخلاص للشخص الواحد .. وهي الدافع إلى نقل هيام الرومانسية لواقع مشاعية الممارسات الجنسية .. الهيام مرض .. والزنا مرض .. حياة خاطئة بمجملها حتى أن كلمات الأغاني عندهم عبّرت عن الموضعين ، وانتقلت من روحانية الحب إلى عرض الجسد بطريقة مثيرة ، فاتنة .. وما الإيدز إلا مرض عصري ساير الانحراف ..

وقد يزيد القارئ الكريم إدراكا أن الضلال ، كل الضلال في الخروج عن مبادئ وقيم الشريعة الإسلامية التي منعت أسباب الفساد قبل وقوعه، وحافظت على صحة المسلم جسديا ونفسيا.. و يزيد يقينا أن حقيقة الوجود في التزام الحق .. و لا حق خارج الإسلام .

القارئ المطّلع يدرك أن الغرب لما نقلوا الثقافة الإسلامية - عبر سياسة الاستشراق - اهتدوا إلى أن من أسباب قوة المسلمين ، تلك القيم الخلقية

التي ترجموها أو اعتنقوها دون إسلام ثم عبروا عنها "بالقيم الإنسانية النبيلة " ، ولكنهم عجزوا عن التكيف مع مفهوم الحب في الإسلام لأنه لصيق بالعقيدة الإسلامية .

وليعلم المسلم أن ما يراه ويسمعه عن المعاملات الاجتماعية الغربية التي تتطابق مع الإسلام مأخوذة من الإسلام ذاته عبر الترجمة ..

فكيف تسمح - أيها المسلم - أن تقتدي بهم في أصولك ..

إن ظاهرة الحب عند الغربيين بهذا المفهوم ، تعني أن نسبة النجاح فيه ضئيلة جدا ، وإن حظي هذا الحب بالاستمرار فشروطه كثيرة ومرهقة ، ومنها المركز الاجتماعي المقبول في العالم المادي .. بمعنى أن الفقراء هم ذوو الحظ الضعيف .. هم الذين يدفعون ثمن الفشل بالأمراض النفسية ونتائجها الجسدية أو الانتحار .. فينقلب الحب إلى كراهية بين الطبقات الاجتماعية .. ويدفع الأفراد إلى توفير شروطه بكل الطرق مهما تدنت مستويات وضاعتها ..كالسرقة وهضم مختلف حقوق الغير.. و المنحرف لا يجني من الشوك العنب ...

الحب الحقيقي :

مدخل :

يستفسر الإنسان بعقله عن الموجودات وكيف خلقت في بدايتها، وصارت كائنة بعد عدم،فيسأل عن أول خالق للشمس ، للقمر ، للشجر، لآدم ..فلا يقنعه إلا جواب واحد لا ثاني له:هو الله الخالق ، إذ لابد لهذه الموجودات من واجد ..

ثم يسأل نفسه إن كان مخلوق من هذه المخلوقات يتميز بكلمة " خلق " لموجودات أخرى في هذا الوجود .. فلا يجد جوابا مقنعا ، حتى يقتنع بأن مادة (خلق) مختصة بالخالق وحده ..

فينتهي إلى أن الله هو الخالق لكل موجودات الكون ، وهذه المخلوقات محدودة القدرة تتصرف وفق طبيعة مختصة بها،تتميز بها عن باقي الكائنات ..

ثم لا يجد هذه المخلوقات قد خلقت باطلا ، بل لتؤدي وظائف في الدنيا .. وبهذه الوظائف هي مسخرة للإنسان ...

هذا المخلوق المفضل ، والمبتلى بحرية الاختيار في الكفر أو الإيمان ..

ثم يلتفت هذا المخلوق المكرم إلى نفسه ، وعلاقتها بالله الذي اعترف له يقينا أنه خالقها فينتابه الشعور بأن هذا الخالق العظيم الذي فضله على سائر الكائنات ، وسخر له كل ما في الكون،لهو جدير بالإجلال والاحترام والحب ..

الله أوّلاً وأخيرا :

يجد الإنسان نفسه ضعيفا أمام الكون الفسيح ، فيدمغه عجزه على مقارعة الخطوب الملمة به من كل جهة، إلى البحث عن إلاه قوي يعتقد فيه الحفظ والحماية ، يعبده ، فتتعدد الآلهة ، كل حسب معتقده..

الله العليم بمن خلق يرشدنا في القرآن الكريم ، أنه أشهد ذرية آدم ، في عالم الذر ، على ألوهيته :

" وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ " الأعراف 172 .

والله الذي أشهدنا على ربوبيته ، جزم أن هداية المخلوقات إلى نوره لا تكون إلا منه ، والبشر مطالبون بالدعوة والإبلاغ فقط :

" إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ." القصص 56 .

و هو أدرى بخلقه – سبحانه - إذ جعل لبلوغ الغايات و المقاصد ، أسباباً و دوافعاً ، فهل يفسد الإنسان في الأرض ، ويعطل عقله الذي فضله الله به على جميع الكائنات ، وينساق وراء أهواء النفس الأمارة بالسوء ، ثم ينتظر هداية الله و رحمته ؟ دون بحث واجتهاد ! أم يشق لنفسه طرقا يتبع فيها أسباب الهداية التي لا توفيق لها إلا بالله ؟

الله تعالى دعا الإنسان إلى التأمل و التفكر ، في كتابه المقروء الذي هو القرآن الكريم ، وما يحتويه من عبادات لا تنتهي به إلا إلى قوة العزيمة و طمأنينة النفس ، والصلة الدائمة .. و سمو روحي أبدي .. تصقل فيه النفس بالذكر الدائم ، وتصفو لبارئها و تستقيم ..

ومعاملة إنسانية ، مهما حاول العقل البشري أن يكتشف فيها عيبا يفتح ثغرة للانحطاط الاجتماعي أو الانحراف الخلقي ، فإنه عاجز لا محالة ..؟ فهذه المعاملة في إطار علم الاجتماع الإسلامي ، ليس فيها إلا التطور الناتج عن الوحدة والأخوة والتكافل والتعاون .. فهي دعوة إلى القوة ..والحب ..

وتشريعات تحتوي الأوامر والنواهي التي تعبر عن الحلال والحرام ، لا يجد فيها العقل إلا استقامة السلوك ، وحفظ الحقوق ، وأداء الواجبات ، وهي خالية من أي سلبية أو عيب .. وعلى هذا تبنى مجاهدة النفس ...

وهكذا بعد درس عميق للقرآن ، لا يجد الإنسان إلا منهجا ربانيا مستقيما ، لا اعوجاج فيه ، يدرك المرء من خلاله أنه الصراط الحق الذي يسعد به الفرد والجماعة في أي زمان ومكان متى اعتنقوه ، وأحسنوا تطبيقه كاملا ، صافيا ، دون نقصان أو تحريف أو زيادة أو تعطيل ..

وفي كل حالة من هذه الحالات ، سواء في جزئياتها ، أو كلياتها ، متى أدرك المرء استقامتها ، أدرك أنها الحق ولفظ عبارة : سبحان الله .

وإذا وقف عند آيات القرآن الكونية الدالة على التفكر في الكون،التفت إلى كتابه المفتوح وتأمل في كون الله المترامي الأطراف ، الذي لا تحده العين المجردة، من طبيعة ، وكائنات حية وموجودات جامدة أو متحركة ..لا يجد هذه المخلوقات خلقت باطلا ،بل تؤدي وظائف متناسقة ، متكاملة .. فكلما تأمل في جزء صغير أو كبير ، انبهر في دقة صنعه ولفظ : سبحان الله .

وإذا عاد إلى لغة هذا القرآن المجيد ، وجدها قمة في الدقة والتناسق والأداء والترتيب ، والإيقاع . ووجد بلاغتها لا تضاهى أبدا .. أبدا .. ومهما حاول الإنسان محاكاة هذا الأسلوب المعجز فإنه يقف منبهرا ، صاغرا ، مذعنا إلى عبارة : سبحان الله .

وفي عصرنا الحديث يكثر الكلام عن الإعجاز العلمي في القرآن ، فمتى وقف العقل عند آية من آياته ، أدرك الحق سبحانه وتعالى .. يقينا ،وهذا الإعجاز من الأسباب التي يعول عليها اليوم في الدعوة لأنها عين العقل ،عصر التكنولوجيا والدقة وعمق الاختصاص..والدليل أن علماء الغرب إن لم يسلموا بعد التعرف على هذا الإعجاز العلمي ، يعترفون بصحة القرآن ، ودقة منهجه ..

حب الله ورسوله :

ذكر عن الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أنه من أحصى أسماء الله الحسنى دخل الجنة . والإحصاء - أفهمه - بمعنى الإدراك التام لمداليل هذه الأسماء،والاقتناع بها إلى درجة اليقين..لتصير عقيدة مكينة في نفس المؤمن..حتى تصير هي المرشد الوحيد للنية والتفكير ، والقصد في قضاء الحوائج .. إلى درجة أن يدرك المرء أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مطلق الكمال في كل أسمائه الحسنى فهو الغني الغنى المطلق ، ونحن الفقراء إليه الفقر التام ، وحاجتنا إليه في كل حركة وسكون ، نوم ويقظة ، حتى في النّفَس الذي نتنفسه ..

وبهذا الإدراك لهذه الأسماء ، يبلغ المرء درجة ما في التوكل حسب اجتهاده وصبره ، ودرجة في الإحسان حسب عبادته ، والإحسان أن نعبد الله كأننا نراه ..

فإذا علم المرء مثلا أنه يرتكب المعاصي كزبد البحر ، ثم يتوب فيغفر الله له ، أحبه . وأنه ينام والله يحرصه ، أحبه . وأنه يوقع نفسه في المهالك والله - حينما يشاء - يحفظه ، أحبه...

إن المؤمن لا يؤمن إلا إذا أحب الله ورسوله أكثر من نفسه وماله وولده ..والحب هنا يعني جهاد النفس - باستماتة - في تطبيق الأوامر والنواهي الواردة في المصدرين:كتاباً وسنّة.. ولا يخلو هنا الجهاد من التضحية بالنفس وبالوقت وبالطاقة ، في سبيل تنفيذ كامل ، بل لا بد من السهر الدائم على المتابعة الحثيثة في مطابقة جميع السلوكات لمفاهيم الشريعة الإسلامية .. وكذا الدفاع في سبيل المبادئ الإسلامية ..

إن العصبية للإسلام تكون في النفس ومدى ثباتها على المبادئ النابعة من التصور الشامل..أمّا مع الآخرين فالتأثير يكون بالصدق في المعاملة الحسنة ،

وحسن الظن بالآخرين ، وبعث الثقة في نفوسهم بأن لا أذى للآخر ، و لا هضم لحقوقه ، ولا تهديد لمصالحه .

فالجليس أو المحاور أو المتعامل مع المؤمن يجب أن تدفعه طرق المعاملة إلى احترام الإسلام من خلال سلوك المسلم وهذا كافٍ في إبلاغ الدعوة ..

إذا خلصت نية العبد في معرفة الله،وعلم أن الله عليه رقيب، سميع، حفيظ، مجيب... اجتهد في اجتناب جميع المعاصي ، ليزيد تقربا :

" إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً " النساء 1 . " وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ " الحديد 4 .

وإذا علم أن حكم الله ماضٍ فيه ، وأن قضاءه عدل فيه ،و إذا أدرك أنه قدّر له مقادير حياته ،وسبب له الأسباب في بلوغ أرزاقه المادية والمعنوية .. يتحلى باليقظة و لا يغفل إلا مرغما.وإذا علم أن روحه بيد الله،كما ورد عنه . صلّى الله عليه وسلّم .:

"ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه،و إذا شاء أن يزيغه أزاغه" . رواه النسائي و ابن ماجة.

وكان . صلّى الله عليه وسلّم . يدعو فيقول :" يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " .

وإذا وثق أن الله تعالى وَكَّلَ له ملائكة حفظة كراماً ،وسخر له الحراسة الدائمة ، فلا تتم الأمور إلا بأمره تعالى : " اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"سورة الزمر 42 .

لذا علم الراسخون في العلم هذه العقيدة المكينة في النفس ، وتجلّت لهم بدون لبس أو شك ، فقالوا : " آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا " آل عمران 7 .

هذا اليقين في المعرفة هو دافع طائفة إلى الانقطاع عن الدنيا،والتزام الذكر الدائم،من تهليل وتكبير وتسبيح واستغفار،حتى لا تغفل عن ذكر الله ..

وطائفة أخرى راحت تنفذ الشريعة الكاملة بلا نقصان و لا زيادة ، واعتمدت العمل في تعمير الأرض .. و لا خير إلا في العمل باعتباره عبادة .

وبين هذا وذاك ، فالمرء مطالب بأن يقتني الحلال ويتحرّاه ليعيش به . والحلال لا يأتي إلا بعد جهد وتعب،ولو أن الله يرزق بدون حساب من يشاء .

فنحن نعبد الله بالعمل الذي بدونه لا تكون حياة .. وبدونه لا يحقق الإنسان هدفا في حياته .. إن اعتبار العمل مشغلة عن العبادة انحراف وجداني يجب مقاومته ، إذ بدونه يفقد الإنسان كرامته،ويصير متطفلا على غيره ..

ومن معرفة ما سبق ، وما لم يذكر في هذا المقام ، يتولد عنصر التقوى ، ولا تكون التقوى دائمة إلا إذا حرص العبد على تنفيذ شرع الله كاملا ،ونسبة التنفيذ تحدد نسبة التقوى.

وقد عرف الإمام علي . رضي الله عنه . التقوى بقوله :" هي خشية الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضى بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل ".

والتقوى تنتج العمل الصالح الذي يجلب المنفعة ، ويدفع المضرة ، فكل عمل فيه خير ، فيه أجر . إن المعرفة الحقيقة بالله ورسوله تولّد حبا حقيقيا ، وهذه غاية المريدين .. وهذا الحب السرمدي يفيض على صاحبه حب المخلوقات ، فيكون حب الموجودات وسيلة للتقرب من الله .. هذه القربى تدفع صاحبها إلى جلب السعادة للبشر ، لأن وجود المحب لهم بينهم ، راحة وطمأنينة وسكينة لهم

...فهو محل أمان ، ومصدر وفاء ومنبع صدق .. لا يخالف عهدا ، ولا يخون أمانة ..و لا ينصب الفخاخ لغيره كي يطيح برؤوسهم ، ولا يعترض طريقهم أثناء طلبهم أرزاقهم وحاجاتهم ..

وقد بلغ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ منتهى الكمال في هذه المعاملات الفاضلة حتى صار عند المشركين المناوئين له : "الأمين الصادق" .

والرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ هو المخلوق المصطفى المخلص لعبادة الله تعالى ، وهناك أسباب جعلت منه سيد البشرية ، وإمام المرسلين .. جوهرها هو تقربه إلى خالقه بالعبادة والطاعة ، لا تضاهيها عبادة في الكون ، أساسها الصدق والإخلاص الدائمين إلى درجة التفاني ..

هذا المثل الأعلى في العبادة تناسب مع حظوته بتنزيل الوحي عليه ، فهو لا ينطق عن الهوى .. هذه العبادة كان الحب مطيتها ، والمحب يخلص للمحبوب ، فنال رضى الله وحبه ، حتى جعل طاعة المؤمنين له من طاعته تعالى : " مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ " النساء : الآية 80 .

والرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قمة في الأخلاق ، ومصدر إلهام مثالي في المعاملة مع الله ،أفاضت عليه معاملة فاضلة مع البشر ، ومع نفسه .. هذا العلم الدقيق العميق بمعرفة الله هو دافعه إلى العبادة الصحيحة الدائمة . هذه العناصر هي محل الإعجاب الدائم الذي أثمر الحب .و لمّا سئلت السيدة عائشة – ض- عن سيرته قالت بأن خلقه القرآن ..

من هنا صار قدوة الجميع في العبادة و المعاملة والأخلاق ،وفي كل شيء .. الكل يغترف من سنته وسيرته ..

ويأتي بعده الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في إتباع سنته ، حتى قال :

" أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " .

ومنذ مجيء الرسول وإلى يوم الدين ظل وسيظل المهتدون يقتفون أثره ، ويسيرون على نهجه ، وقد قيل إن الحبيب للمحبوب مطيع ..

والصحابة . رضي الله عنهم . كانت تبعيتهم للرسول . صلّى الله عليه وسلّم . في اتّباع سيرته،وتطبيق سنته ، وتنفيذ ما نزل عليه من وحي ، تنفيذا حيا ، ينفعل فيه الضمير بالقيم ، ويترجم الكلمات إلى سلوك .

يذكر أحد الصحابة أن الرجل منهم كان يقرأ عشر آيات ، فإذا عرفها و المعرفة بمعنى الإدراك التام لمعانيها وأبعادها وآثارها، اقتنع بها واستقرت في وجدانه الباطن ، ثم ينتقل من الفكر التأملي النظري إلى الفكر التطبيقي،فيترجمها في سلوكياته ...

والكتاتيب اليوم تعتمد على تحفيظ القرآن الكريم دون التمرس على تطبيقه ...

وقد جعل الله بحكمته وإرادته الحب مقامات وأنواع:أعلى مرتبة فيه هي حبه وحب رسوله،وسبيل ذلك العفة والطهارة والتنزه عن الدنايا.. و وسيلته الشوق إليه واعتقاد الكمال فيه..

وحب الله عند المؤمنين يقتضي حب الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . و ما يليه من رسل و أنبياء و صالحين ووالدين ومعلمين ، وجميع الموجودات في الكون ..

وقد ورد عن الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . :

" ما آمن بي من لم يحببني أكثر من نفسه وماله وولده " .

وحب الله ورسوله في الأرض يعني العمل الدؤوب على تطبيق شريعته السمحاء،وسنة رسوله الكريم،ولو استدعى الأمر التضحية بكل عزيز.. ولو بالنفس ..

وحب الله ورسوله يقتضي حب منهجه الذي اختاره لعباده في الأرض ..

وحب الوالدين في طاعتهما ، والرغبة في اجتناب عصيانهما مهما كانت ظروفهما ..

وحب الأهل وجميع الناس وكل الموجودات .. كلية يفيضها التقوى ..

أمّا حب الأجنبية الذي فجّر قرائح شعراء الغزل .. فلم نجد له أثرا في كتاب و لا سنة...بل هو حالة مرضية سببها غياب العقل ، وإتّباع الهوى ، وولّده الحرمان ..لأن القلب فارغ من الحب الحقيقي . حب الله و رسوله . الصلة الدائمة بالمحبوب .

عبر دائمة في الحب الحقيقي :

- محنة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ :

هناك حادثة تتكرر سنويا في حياة المسلم تذكره بالحب الأول ، الحقيقي ، الذي يجب أن يلتزم به دائما كلما وضع في ميزان الاختيار بين حب الله وحب موجوداته ..الترقي الدائم بالعقل والقلب في هذا الحب ، والتصدي لأهواء النفس ..

هذه الحادثة يمثلها عيد الأضحى ..

في البداية نذكر أن المؤمن مبتلى دائما ، ابتلاء يوازي مستوى درجة الإيمان ، لتحدث المغالبة بين نقيضين ، وينتصر العقل والصبر واللجوء إلى الله وتفويض الأمور إليه ، ورد في القرآن الكريم :

" الم {١} أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ {٢} وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ "

العنكبوت : الآية 1-2

وورد عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم :

" الأنبياء أشد بلاء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل "

وهذا إبراهيم الخليل ، بعد شوق شديد إلى ذرية تشد أزره ، وتواصل مسيرته ونسله ، وتبعث المسرة في وجدانه،يرزق أخيرا بإسماعيل ـ عليه السّلام ـ بعد أن بلغ من العمر عتيا...

وبعد أن يشتد ساعده ويكبر ، ويتكئ عليه الأب الجليل في مساعدته على شؤون حياته ، ويصير في حاجة ماسة إليه ، نظرا لكبره وما يترتب عليه من صعوبة مكابدة الحياة ، ينزل الأمر بذبحه في سورة الصافات : الآية 102 :

- " قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ"
- " قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ "

ويهم بذبحه ، ويطيع الابن ، ويخضع للأمر الواقع .. ويختار إرضاء خالقه وطاعة أبيه على حياته .. إنها التضحية بالنفس في سبيل الله ...

كلاهما وضع في ميزان الصراع النفسي الشديد ليتخذ القرار المر ، لكنهما يتجاوزانه بفعل التربية الروحية العالية والمعتقد المكين ، ويتم مباشرة الانصياع والتسليم لأمر الله ..

لماذا هذا الانقياد المطلق لأمر الله ؟ لماذا هذا الاستعداد المطلق لتنفيذ كل أمر يصدر من الله ؟

لأنه اليقين بمعرفة الله وقدرته وجلاله .. فهو الفعال لما يريد .. يتصرف في خلقه كيف يشاء .. لكنه رؤوف لطيف .. و لأنه العالم بسبب الوجود على الأرض ، العبادة بالطاعة المطلقة دون شروط ..

وقد فتن كلاهما ونجح .. أمَا و قد تجاوز كلاهما هوى النفس ، وغلب عليه عنصر تنفيذ أمر الله ، فقد بلغت نفساهما قمة الصفاء والطهارة والخضوع .. وذلك ترجمان الحب الحقيقي الأول ، المكين في القلب..لله وحده .. دون سواه ..

وإذا بهذا الحب الصادق ، الخالص لله يترجم الرأفة في قلبي الأب و الابن معاً .

فالعبرة من التضحية في عيد الأضحى يجب أن تمثل في ذهن كل مسلم ، بأن يكون مستعدا للتضحية بالنفس والابن وكل عزيز في سبيل الله ، وتلك التضحية العملية هي نتيجة مترتبة عن حب مكين.

- محنة يوسف عليه السلام :

لعل قصة يوسف ـ عليه السلام ـ أبرز حادثة غرام تنبهر فيها المرأة بصورة الجسد الفاتن ،والشّخصية القثويّة، فتعشقها ،وتستخدم كل الوسائل المتاحة المؤهلة ، وتهيئ جميع ظروف إشباع الرغبة الغرامية ..

لكنها تصطدم بروح طيبة ، بريئة ، سامية ، موصلة ، معتصمة بالله ..

حيث تتغالب رغبات الغريزة الحيوانية مع روح تقية ، موصولة ، عليمة بالنتائج ، واثقة ، ترى الخير فيما يمليه العقل البشري .. إنه صراع بين الهوى والعقل ..

وتنتصر الروح الطيبة ، بعد محنة لا يعرف أثقال مسؤولياتها المتعددة الجوانب إلا من عايشها ، أو أحسها من وقف عندها زمنا طويلا يتأمل الملابسات والمواقف والظروف ...

يوسف ـ عليه السّلام ـ من الذين أخلصهم الله لعبادته ، فهو نبي الله المعصوم .

" إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ" يوسف : الآية 24 .

ليكون قدوة حسنة في حبه الحقيقي لخالقه ، وفي كمال صدقه المكين في نفسيته البشرية الفاضلة ، وقد تهيأت له ، منذ نشأته الأولى ، في حياته ، الأسباب الخليقة باكتساب مبادئ التربية المثالية ، المطابقة للفطرة السليمة ، والمعبرة عنها ، في منتهى نقائها ، وقمة صفائها.

فأبوه هو يعقوب عليه السلام ، الذي ترعرع منذ صباه ، في حضنه ، وتغذى من منهجه النبوي الوجهة المستقيمة ، وتدرب على كيفيات مسالك التقوى المصاحبة للطهارة والعفة .. والرؤيا الصالحة التي رآها منذ صغره ، تهيئه

لتحمل أعباء محن كبيرة تثبته ، وتصقل نفسه ، وتمحصها لتزيد صفاء لبارئها،وتقربا منه .. ثم دبر له الله أسباب التمكين في الأرض ..

إنه الإحسان من الله بتسخير مخلوقاته في تنفيذ قضائه ، وبلوغ أمره ..

يدخل بيت العزيز ، فيكرم مثواه ، ويوصي عليه زوجته ، أملا فيه المنفعة مستقبلا ، متوسّما فيه الخير .. كل الخير ..

نذكر أن القرآن الكريم حينما يستنطق الحالات الغريزية ، سواء أ في نطاقها الفطري السليم ، أو في لحظات انحرافاتها السقيمة ، يكشف لنا عن ملابساتها مفصلة ، في ألفاظ قليلة قوية ، دقيقة في تصويرها ، معبرة عن الحدث بواقعية صادقة شفافة تشخص الانفعالات ، وتستشف الأحاسيس من عمقها،مع الحفاظ على عفة الموقف،دون فضح للعورات،ودون تجريح للمشاعر أو خدش الحياء وتعريته من جماليات الطهارة فيه ، وهكذا ينبغي أن يكون الأدب الإسلامي ... فالقرآن قمة الفصاحة وأرقى سمات البيان ، والمثل الأعلى في الإقتداء ..

حال زوجة العزيز هو شأن كل مترف في الأرض ، يتقلب في نعيم القصور.لا يعرف لها الحرمان طريقا ، يتوفر لديها كل ما لذَّ وطاب،فترتبط بالملذات ، ويطغى طلب النفس ،ويغيب الرادع ، ويموت الضمير ، ويزيد الطلب ويتفاقم ، وتألَف النفس وتعتاد على تلبية جميع الرغبات ، ولا مانع يمنعها في كنف حياة سخية ، توفر جميع الأسباب المادية ، فتطغى على الروح ..فهذه الزوجة تملك الجمال،المال ،والسلطان ...

ولما كانت نفسها كذلك ، فقد دأبت على تحقيق ما تريد ، دون تعب ولا معاناة ، والنفس الهائمة تتمادى في طلب المزيد ، وقد تضخمت عزيمتها ، واستشرت همتها ،وقويت شراهتها،فبدا لها كل طلب رخيص، سهل المنال ..

لكنها هذه المرة أمام تربية نقيضة لسلوكاتها هذه..أمام نفسية صارمة، منضبطة ،موصولة بالله مترفعة عن الدنايا، تقدر الأمور،وتحسن تصريف الرغبات ، وتجيد أساليب قمع النفس ، وتخضعها لميزان العبادات الصالحة .. والعامل فيها العقل القوي المدرك ..

وقد وهبه الله . سبحانه وتعالى . جمالا يقاسم الكون نصفه ..فانبهرت المرأة أمام الصورة..وراحت نفسها تقربها بمتعة غريزية قد تلْعقها من هذه الروح الطيبة ، ذات الجمال الذي تطابق فيه الباطن مع الظاهر .

تدبر معي . أيها القارئ الكريم . هذه الآيات الكريمة :

" وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ {٢٣}وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ {٢٤} وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ " يوسف : الآية 23 – 24 .

هكذا تأتي المحنة في قالب حادثة قصصية ، مفصلة ، في ألفاظ عميقة المداليل ، كثيفة المعاني ، حيث تسمح بترتيبها المتناسق ، المتتابع المواقف ، للخيال ينسج مختلف الحالات النفسية والحركات الجسدية دون ارتباك أو انحراف في التأويل المخل بالمعاني الدقيقة للموقف الحرج الذي تبلغ فيها الأزمة قمتها،بعد صراع متفاقم ، ينتهي إلى حل يمثله فرار يوسف . عليه السلام . ناحية الباب ..

" وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ".

والمراودة كلمة توحي بالتمهيد . تصاحبها الأسباب والوسائل المؤدية إلى الغاية المتمثلة في إملاء الرغبة المتوهجة في نفس المرأة بأنوثتها الجذابة المطعمة بالإغراء الطويل ، الذي يذيب يوسف . عليه السلام . في جو نفسي يطابق الفعل

المتوقع الحدوث ، ويطوقه في فضائه ، ويحاصر فكره ليمنعه التنصل من تلبية الرغبة الجامعة . وفي هذه الحالة يتعسر الصمود بسبب الإثارة التي تستقطب جميع المشاعر الغريزية ، وتدرجها في نطاق الموافقة.وبعد تهيئة جميع الأسباب والأجواء :

" وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ "..

وبعد التمهيد المثير ، تتنمّى الانفعالات النفسية إلى درجة الاضطراب الذي يبلغ منتهى سموه ، تأتي آخر مرحلة ، تكون فيها الغريزة قد بلغت منتهى قمتها ، وهي إغلاق الأبواب ، لتكتمل الخلوة الحقيقية التي تضع الاثنين في صميم حادثة الرغبة . وبعد انكشاف حقيقة الرغبة، ومباشرته بها :

" وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ "..

وبعد صبر جميل من نبي الله ، وبعد أن تُحَضَّرَ العقدة جزئيا في نفسية المتلقي ، يَرِدُ الحل الجزئي الذي يكشف عن رغبة إمرأة لم تتعود على صد أهوائها ، مُصَرِّحًا نية يوسف ـ عليه السّلام ـ بالرفض المهذب الذي يكشف عن شخصية جديدة أصيلة في دعوتها إلى الله ، ويذكرها بنعمة جليلة عليه :

" قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ "

هذا الرفض الذي يذكرها بضرورة رد الجميل لله تعالى ثَمّ للعزيز، ومقابلة الإحسان بالطاعة والحب . ولا يكتفي بذلك ، بل يتجاوزه إلى التوكيد النابع من خشية نابعة من يقين ، بأن الظالم لا يفلح أبدا . وتتواصل الأحداث المركزة المرصودة ذات العقدة المتنامية :

" وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ " .

تسعّرت الحرارة الغريزية ، وتفجّرت من باطن المرأة الغاطسة في غمرة اللذة الجسدية ، المنبهرة النفس في جماله ، وقد دعته بدوره لفحات الإثارة والإغراء إلى الهم بها بالميل الشديد ، والانجذاب القوي إليها ..

وعاش صراعا نفسيا في أرقى مراتبه ، بين لذة آنية فانية تنتهي به إلى الهلاك يُسرُّ فيها لحظات ضئيلة عابرة ، ثم يقضي بقية أيامه حسرات ، بين تأنيب الضمير ، والخوف من عاقبة السوء ..وبين عاقبة حسنة مأمولة تنتظره ، وسعادة أبدية تغمره إن هو أقلع عن معصية شبه مفروضة عليه ، هي موضع امتحانه . ووقع بين خيارين : خيار المعصية والهلاك ، وخيار اجتناب المنكر والصبر الشديد على الأذى ولكنه نبي الله الذي " رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ " في ضرورة اجتناب المُحَرَّمات ، وذلك تثبيت من الله ، ليصرف عنه كل فاحشة تعكر طهارته . ففر هاربا إلى الباب ليصطدم بالغريزة ، وتلف مكيدة المرأة خيوطا نحو رقبته بأن اتهمته بمراودتها وابتغاء السوء .

" وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " يوسف : الآية 25 .

لقد بلغت العقدة قِمَّتَها ، وفضح الأمر،واستحضرت المكيدة في وقتها ، ولفظت الحل في لحظة وجيزة ،وقلبت الموازين ، وصار الجاني بريئا ،والبريء متهما .

تبرئ نفسها ولا تريد له الهلاك ، فهي المخطئة المنحرفة ، لكن النفس المترفة لا تتطلع إلى توبة عاجلة ، بل تقترح عقوبة تأديبية لرفضه تلبية النداء . فهي الحاكمة وهو المحكوم .

نساء القصور وكيد المرأة :

" وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ {٣٠}فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ {٣١}قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلِيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ {٣٢} قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ {٣٣}" يوسف : الآيات : 30-31-32-33 .

ولئن كانت براءة يوسف قد تبدّت للعزيز ، ولئن كان قد أمره بالإعراض عن هذا الأمر ، مكتفيا بلوم زوجته لَوْمًا يتضمن تذكيرها بعيب عام قد يبدو لكثير منهن محل فخر ومركز قوة ، يتمثل في كيدهن العظيم ..فإن الخبر قد تسرب إلى نساء المدينة ، وصار بينهن فضيحة ، تتهم في داخل حجراتها امرأة العزيز بعشق الفتى ، ومراودته عن نفسه ، وانحرافها عن جادة الصواب .. هؤلاء النسوة اللواتي ينتقل إليهن الخبر بطرق خفية متواترة عبر النجوى ، يَكُنَّ على صلة أكيدة ، ومعرفة حقيقية بالمرأة فهن من طاقم الحاشية التي لها علاقة بالعزيز ..

علمت بما يدور بينهن من كلام ساخر ، وقذف واستهزاء ، وهي الأنثى الخبيرة الكائدة التي تعرف ضعف نفوس ذوات القصور المترفة ، تدبرت حادثة الانتقام ، وهيأت ظروفها ، واستدعتهن ردا على سخريتهن بقساوة ومكر .. وقدمت لهن سكاكين ، لينشغلن بممارسة عمل مرتب المقدمات والنتائج ، ثم أمرته بالدخول عليهن ، لينبهرن بدورهن ويقطعن أيديهن ، جزاء لما لهجته ألسنتهن من كلام ، وبعد أن فقدن مبررات السخرية ، وتقطيع الأيادي كدليل للاعتذار

الملموس،أقرت علانية بمراودته عن نفسه ، وذكرت ، في إصرار ، أن جزاء الرفض لا يكون إلا السجن كعقوبة انتقام . لقد كانت فضيحة في إعلان صدق نيتها في إغراء وكان قوي الاعتصام بربه .

وتعالج القصة هنا مواقف الروح الطيبة الشفافة الممتحنة في مواجهة اللذة الغريزية . ولكنها الروح المخلصة التي لا تنطق بكلمة "حب" إلا فيما يرضي الله ، والولاء عند يوسف القدوة للمؤمنين . لا يكون إلا لله لا غيره ، والبراءة من ذنب المعصية وأهلها ، ويأتي وقت الشدة الدعاء المستجاب :

" رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ "

لا شيء أصعب على النفس من تكبيل حرية الإنسان وسجنه ، ولكن أذاه تساوى في ضخامة حجمه مع كبر حجم معصية الزنا عند الله :" الجزاء من جنس العمل " .

فقد أحب ما يرضي الله من سجن اجتنابا للمعصية ، وكره نبي الله ، ما يغضب الله من وقوع في معصية الزنا وخيانة العزيز الذي أحسن إليه وأكرم مثواه .

من خلال حادثة إمرأة العزيز ، ونساء ملأ القوم من حولها ، نستقرئ حياة القصور المترفة قديما ، التي تجاوزت حدود الوسطية في الضرورة والحاجة إلى البحث عن فضاءات للمتعة بما تحمله من دلالات الميوعة والخلاعة . فلا وازع ديني يكبل إغراءات النفس وجشعها المتفاقم في طلب اللذة ، ولا رادع خلقي ينتفض فيه الضمير ، ويقر بالوفاء للأزواج ، بل في كنف مشاهد الجمال الجسدي ، تعشق الصورة ، وتنتعش الجوارح ، وتحضر كل القوى العقلية كاملة مصوبة نحو إشباع الغرائز الجنسية .

كما أن حب السجن فيه النجاة وكسر الشهوات لتصقل النفس ، ويفيض منها نور الصلة الوجدانية ،وهي رغبة يمليها العقل الخاضع لقضاء الله ، المجتهد في إرضائه مهما كان

ثمن التضحية . فهو مبتلى في جماله الفتان الباهر ، ومبتلى بالعيش في وسط بيئة متعفنة ، أوجب عليه ضميره الحي التخلص من جوها الكريه ، والتمسك بصفات الطهارة ولو كان موطنها السجن ، فهو الماسك على الجمر بحق . ونستشف هنا الحب والبغض عند المؤمن لا يكونان إلا في الله ، كأحاسيس طهارة تترجم الولاء والبراء .

كما نستقرئ صعوبة الاختيار بين الطاعة والمعصية ، وما يترتب عنها من جزاء ، وهي ليست المعصية والداعي إليها ، رغم هول المحنة التي كابدها بمشقة . امتحان الرفض والامتناع وهو مرغم ، وبين خيارين ، كلاهما أقسى من الأخر .

وقد ندرك الآن حجم(الفاتورة)الكبير الذي يدفعه الرجل حينما تدعوه المرأة . أو العكس . ذات السلطان والجمال إلى الزنا..ويمتنع معتصما بالله .. فتكون العدالة الربانية في أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله ...

ولئن كان يوسف في هذا المقام قد أعلن " السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ " .. واستخدم كلمة حب فيما يرضي الله ، فإن إمرأة العزيز : " قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً "

وفي كل القرآن الكريم ، لم تستخدم كلمة حب بين ذكر وأنثى إلا في هذا الموضع ، موضع الزنا ،وكأن الحب هو مجرد هوى للنّفس سيطر على الغرائز .. أما بين الزوجين فقد استخدمت كلمات : " تسكنوا . المودة . الرحمة " .

الفصل الثانـــــــي

المحبة بين المؤمنين :

ورد في الحديث الصحيح عن الرسول . صلّى الله عليه وسلّم .:

حدثنا مسدد قال: حدثنا يحيى، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي . صلّى الله عليه وسلّم . وعن حسين المعلم قال: حدثنا قتادة عن أنس، عن النبي . ص . قال : "لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه" (1) .

والآية صريحة بالقصر البلاغي المراد منه التخصيص :

" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" الحجرات : الآية 10 .

و الناس في معاملاتهم معادن ...

- صنف يعتقد أن النّاس ذئاب محتالون شرسون ، يقضون حياتهم ، وهم يتحيّنون فرص غفلة الآخرين لينقضّوا على فرائسهم..فصار منطلق نيّتهم في المعاملة ،إساءة الظن بالآخرين منذ البداية ،يرفعون شعار: آكل أو مأكول ..ويتحولون بعد تكرار هذه النية في نفوسهم إلى حيوانات مفترسة تعيش على حساب حقوق الآخرين وأرزاقهم ، يعبثون بمشاعر الضعفاء ، بكل قساوة ، دون مراعاة وازع ديني أو خلقي ، خسروا الدنيا والآخرة ..

- صنف تقي ، صادق النية ، يحسن الظّن بكل النّاس ، ويعتقدهم مثله تماما ، فيقع ضحية الصنف الأول ، وتضيع حقوقه مع كل شرّير ..

---

(1) رواه البخاري في كتاب الإيمان (باب : من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

- صنف عالم ، كيّس ، فطن ، يحسن الظن لكنه يحذر همجية المتستّرين وراء الأخلاق والعقيدة ، أولئك الخاضعين لإغراءات نفوسهم ،و لِوساوس الشيطان ... دائما يتبّين الرشد من الغيّ في سلوكاتهم ،فهو لا يخدعهم ، ولا يمكر ، ولا يحتال ، خوفا من الله مهما كان ضعفهم أو غفلتهم ، فهو يعمل مع الله لا مع النّاس .. يتقن فهم الحديث الذي رواه الترمذي و قال حديث حسن ، وفي بعض النسخ حسن صحيح : عن أبي ذرٍّ جُنْدُبِ بنِ جُنَادَةَ و أَبِي عبدِ الرحمن معاذ بن جبلٍ - رضي الله عنهما – عن رسول الله ـ ص ـ قال :

" اتّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ و أَتبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ " (1) .

هؤلاء هم الفائزون بجوائز الدنيا والآخرة ، يبدأون علاقاتهم مع الآخرين بالظن الصادق الذي لا كذب فيه ولا بهتان ـ حتى يحافظوا على أنفسهم ..

متحررون من الوقوع في الخطأ والإساءة للآخرين في باطنهم ، يحذرون الحسد الذي ينسى فيه الحاسد إرادة الله في كلّ النّعم على الإنسان، فلا

يتمنّون زوال النّعم من المنعم عليه ..لا يعارضون القدر .. لأن الحسد من أكبر المخاطر على عقيدة المؤمن .

ذلك أن الحسد تتفرع عنه كل المفاسد والرذائل كالعين التي تصيب المنعم عليه في نفسه أو ولده أو ماله ... فيعاقب العائن بذنوبه" وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ" النساء: الآية 32 .

---

1. رواه الترمذي في أبواب البر و الصلة (باب :ما جاء في معاشرة الناس).

يحترزون الغيبة التي هي ذكر الإنسان في غيابه بما يكره ، فيها الهمز واللّمز ، وفيها الوشاية ، بهدف كشف عيوب الآخرين حتى تنقص قيمتهم الاجتماعية بين النّاس ، لذا تجد العارفين منشغلين بعيوبهم ، ومجاهدة أنفسهم على تصحيحها ...

يخافون الأمانات التي وضعت تحت مسؤوليتهم فيحفظونها..ويراعون العهود فلا ينقضونها..يقابلون الإساءة بالإحسان.. ولعل رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ضرب أروع الأمثلة عندما كان اليهودي يرمي الأوساخ أمام بيته ، حتى مرض عاده.

ولعل تابعه المجتهد أبو حنيفة النعمان ،حينما كان يقوم الليل يصلي مرتّلا القرآن ، كان جاره السكّير يشرع في الغناء ، وقابله ليالي بالصبر والجميل ،حتى إذا ألقت عليه الشرطة القبض تدخّل ليطلق سراحه من السجن ... فندم المسيء وصار تلميذا حتى أصبح عالما ...

فكيف لأمثال هذا الصنف من المؤمنين ألاَّ يحبهم الناس والمؤمنون معا .

وقد ذكر عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أنه قال :

" المتحابّون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيّون والشهداء " رواه الترمذي.

وذكر عنه أيضا في حديث صحيح :

"وجبت محبّتي للمتحابّين في ، المتجالسين في ، والمتزاورين في ، والمتباذلين في" .

والمتباذلون هم الذين ينفقون على بعضهم في الهدايا ،والعطايا ،والمساعدات ..

حقيقة الدنيا عند الصادقين :

ينتشر التصوف ، ويشتد صلبه ،حينما تكتسح الواقع الاجتماعي موجة اللهو و المجون..وتكثر الفتن والفساد..

والدنيا في حقيقتها ، مجرد وسيلة لغاية ، هي دار القرار :إما جنة .. و إما نار ..و المؤمن يجد نفسه مطالب بالتفاعل مع محتوى الآيات الدالة على مفهوم الدنيا ، باعتبارها محطة امتحان وفتنة ، أمر فيها الإنسان بأداء رسالة حضارية .. فهي محل زهد عند المتصوفة خاصة .. وهي جسر واصل .

" اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ " الحديد: الآية 20 .

" الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ " الكهف : الآية43.

وقد تيقن العقلاء إلى أن العون لا يكون إلا من الله :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ اللهِ لِلْمَرْءِ خَادِمًا يُهَيِّئُ لَهُ مِنْ كُلِّ صَعْبٍ مُرَادُهُ

وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَى فَأَكْثَرُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اِجْتِهَادُهُ

وقال آخر :

إِذَا لَمْ يُعِنْكَ اللهُ فِيمَا تُرِيْدُهُ فَلَيْسَ لِمَخْلُوقٍ إِلَيْهِ سَبِيْلُ

وَإِنْ هُوَ لَمْ يُرْشِدْكَ يَوْماً لِمَسْلَكٍ ضَلَلْتَ وَ لَوْ أَنَّ الشِّمَالَ دَلِيلُ

عموما،المتدبرون للقرآن تستوقفهم آيات كثيرة تحدثهم عن الدنيا والآخرة ..

فالدنيا . بما فيها وضعت زينة يبتلى بها الإنسان ، وهي مجرد محطة عبور زائلة ، وقد توعد الله المنساقين وراء مغرياتها بسوء العاقبة ..فقد وضع الإنسان في الدنيا مختارا بين حب الله ، ويتجلى ذلك في تطبيق منهجه .. أو حب الدنيا ، وسبيل ذلك اتباع ملذاتها .. ومع الذم الذي يحصر الاطمئنان للدنيا ، ويتفاعل مع جميع عناصرها ، يطلب الرزق بحيوية ، ويرتبط مع الناس في علاقات إنسانية تحفها المصلحة المنضبطة بضوابط الشريعة الإسلامية .. ويراعي الضوابط والمعايير الاجتماعية للسلوك ..

إن التوجيه الرباني للإنسان ، وتعريفه بحقيقة الدنيا والآخرة ،هي الدافع الحقيقي لتصوف المتصوفة، اجتنابا لمآثمها ..

روى الإمام مالك . رضي الله عنه . هذا الحديث :

" إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ قَالَ لِجِبْرِيْلَ : قَدْ أَحْبَبْتُ فُلاَناً فَأَحِبَّهُ . فَيُحِبُّهُ (1) رواه النسائي و ابن ماجة

جِبْرِيْلُ ، ثُمَ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنَاً فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلَ السَّمَاءِ ، ثُمَ يُوْضَعُ لَهُ القُبُولُ فِي الأَرْضِ .. "

رابــعة العـدوية :

أشعارها الصوفية هي التي تكشف من حال تعلقها بربها :

" إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ " القصص : الآية 56 .

فالعبد حينما ينزع إلى الهداية بنية صادقة ، ويجتهد في تحصيلها ، يجد توفيقه تعالى بمشيئته ، باعتباره جواد لا يرد داعيا ، تواقا إلى الخروج من الظلمات ، والانغماس في غمرة الأنوار الإلهية ...

فهذه المرأة الصالحة ،التي جعلها جمالها الفتان،مطلب حب ومعاشرة من ملأ القوم،رغبت عن الدنيا،وتجردت من مغرياتها،طالبة عون الله ورعايته .. فقد جعلت حبه . سبحانه وتعالى . هدفا ، تحقق به رضاه .. تأمل أقوالها :

حُبُّكَ الآنَ بُغْيَتِي وَنَعِيْمِي وَ جَـلاَءٌ لِعَيْنِ قَلْبٍ صَـادِيْ

إِنْ تَكُنْ رَاضِياً عَليَّ فَإِنِّي يَا مُنىَ الْقَلْبِ..لَقَدْ بَدَا إِسْعَادِيْ

فهي منشغلة بالاستغفار الدائم ، من دنس الذنوب ، وقذارة العيوب :

يَا حَبِيْبَ الْقَلْبِ مَا لِيْ سِوَاكَ فَارْحَـــمِ الْيَوْمَ مُذْنِباً قَدْ أَتَـاكَ يَا رَجَائِي وَرَاحَتِي وَسُرُورِيْ قَـدْ أَبَى الْقَلْبُ أَنْ يُحِبَّ سِوَاكَ

وهي ترى - ورأيها الصواب - أن حب الله دون سواه ، هو الحب الحقيقي الذي يحقق نشوة الطمأنينة الدائمة ، ويفيض على السريرة حب الموجودات المحيطة بالمرء واللجوء إليه . سبحانه . في كل الأمور ،يكون عن قناعة ورغبة ، لأنه الوحيد الذي يستحق الحب ..

ودليل الحب هو الانشغال ، بذكره ، عن زينة الدنيا ومغرياتها ، وكذا الشوق إلى لقائه ورؤيته . وهي تطلب الحماية من عثرات المعاصي ، وهي راضية بما قدّره لها في حياتها :

عَرَفْتُ الْهَوَى مُنْذُ عَرَفْتُ هَوَاكَ وَأَغْلَقْتُ قَلْبِي عَمَّنْ سِوَاكَا

وَقُمْتُ أُنَاجِيْكَ يَا مَنْ تَرَى خَفَايَا الْقُلُوبِ وَ لَسْنَا نَرَاكَا

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الْهَوَى وَحُبٌّ لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَا

فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْهَوَى فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَا

وَ أَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِي الْحُجْبَ حَتَّى أَرَاكَا

فَلاَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَلاَ ذَاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَا

وَأَمَّا اسْتِبَاقِي لِقُرْبِ الْحِمَى فَنَارُ حُبِّكَ خَبَتْ فِي ضِيَاكَا

وَلَسْتُ عَلَى الشَّجْوِ أَشْكُو الْهَوَى رَضِيْتُ بِمَا شِئْتَ لِي فِي هَوَاكَا

ولله تعالى ، حضور دائم في القلب،وذلك إحسان في العبادة المستمرّة :

حَبِيْبِي لَيْسَ لَهُ حَبِيْبُ وَلاَ لِسِوَاهُ فِي قَلْبِي نَصِيْبُ

حَبِيْبٌ غَابَ عَنْ بَصَرِي وَ شَخْصِي وَ لَكِنْ فِي فُؤَادِي مَا يَغِيْبُ

وهي دائمة المناجاة بالحضور الروحي الكامل ، ليس خوفا من غضبه ، ولكن أملا في رضاه حتى أثناء الجلوس مع الآخرين .. متقلبة بين الخوف والرجاء :

إِنِّي جَعَلْتُكَ فِي الْفُؤَادِي مُحَدِّثِي وَأَبَحْتُ جِسْمِي مَنْ أَرَادَ حُبَّهُ

و لّما سئلت عن أسباب الإغراق في عبادته ، قالت :

" ... ما عبدته خوفا من ناره .. و لا حبا في جنتّه فأكون كأجير السوء .. و إنما عبدته حبا وشوقا إليه .. " (1)

وقد صارت مع مرور الأيام قدوة في التفاني في الحب الإلهي ..

---

(1) رابعة العدوية : دار الهدى – عين مليلة الجزائر ص 52

توبة أبي نواس :

التوبة النصوح هي ثمرة رحمة ولطف و رأفة و حب الله لعباده .. حينما تتوافق رغبة المسلم في التوبة ، وصدق نيته مع نفحاته الربانية على عبده ..

إنّنا لا نتحدث عن أولئك التّابعين الميامين الذين فهموا حقيقة الدنيا منذ صغرهم ، عبر التربية الراشدة ، والتوجيه السليم ، فقضوا عمرهم منشغلين بذكر الله ، واعتباره المحبوب الأول والأخير ، أمثال الحسن البصري والجنيد ، وابن فارض ...و لا عن العلماء الذين فهموا حقيقة الإسلام ، و عاشوا يمارسونها سلوكا بين الناس ،ليجسموا القدوة ، أمثال الأئمة الصّادقين ، أصحاب المذاهب الأربعة ...

ولكننا هنا نخص ، رجلا شاعرا ، بالبحث في صحوة ضميره ، بعد غفلة طال أمدها .. لقد عُرف أبو نواس بشعر " اللهو والمجون " ، وكان من الذين يسخرون من كل ما هو عربي ،محاولا فرض نمط حياة فارسية ، مجسدا ظاهرة " الشعوبية " يفتخر فيها بأصوله وثقافته ..لقد عاش حياة يطفو الخمر على ساحة واقعها ، وتتعدّد القيان في مشاهدها الزاهية المختلفة ...

لقد استفاق بعد نوم عميق في سجل الشباب ، لَمّا شعر أن نهايته آتية مهما طال به الزمن ، ولعل البيئة الإسلامية العباسية باعتدالها كان لها الحظ الوافر في وعظ وإرشاد هذا المخلوق ، وتحفيزه على التوبة النصوح ... بالكلمة الطيبة و الدعوة بالتي هي أحسن ..

منذ البداية وهو في غمرة الغفلة ، ماجنا خليعاً ، لما اتّهم " بالدهرية " يعلن تمرّده على الزمن ، وتبرّمه على الحياة الجد ،معترفا بتقصيره ،وغلبة الأهواء النفسية له ، وقد حجبت عنه نور اتباع الحق ، رغم إقراره به ، إذ يقول :

أَيَّةُ نَارٍ قَـدَحَ الْقَـادِحُ وَأَيُّ جَدٍّ بَلَغَ الْمَـازِحُ

لِلَّهِ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَاعِـظٍ وَ نَاصِحٍ لَوْ قَبِلَ النَّاصِحُ

يَأْبَى الْفَتَى إِلاَّ اتِّباعَ الْهَـوَى وَمَسْلَكُ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحُ

مَنْ اتَّقَى اللهَ فَـذَاكَ الَّذِي سِيْقَ لَهُ الْمَتْجَرُ الرَّابِـحُ

فَاغْدُ فَمَا فِي الدِّينِ أُغْلُوطَةٌ وَرُحْ لِمَا أَنْتَ لَهُ رَائِـحُ

و مع مرور الأيام يتقدم به العمر ، وينتبه إلى الموت الذي لا يحابي ، ولا يتجاوز موجودا ، وأن بعد الخلود إمّا جنّة و إمّا نار ، فيصرخ :

أَلاَ يَـا مَوْتُ لَمْ أَرَ مِنْـكِ بُدًّا قَسَوْتِ فَمَا تَكَنُّفِّي وَ مَا تُحَابِي

كَأَنَّكِ قَدْ هَجَمْتِ عَلَى حَيَاتِي كَمَا هَجَمَ الْمَشِيبُ عَلَى الشَّبَابِ

وَمَوْعِدُ كُلِّ ذِي عَمَلٍ وَ سَعْيٍ بِمَا أَسْدَى غَـدًا دَارُ الثّوَابِ

وتعكس أشعاره،في صورة جلية،اعترافه بذنوبه العظيمة،ويأسف لغفلته ، وكأنه في طريقه إلى الإنابة و الاستقامة :الأسف و الحسرة على ما فات :

تَقَلَّدْتُ الْعِظَامَ مِـنَ الْخَطَايَا كَأَنِّي قَدْ أَمِنْتُ مِنَ الْعِـقَابِ

سَأُسْأَلُ عَنْ أُمُورٍ كُنْتُ فِيْهَا فَمَا عُذْرِي هُنَاكَ وَمَا جَوَابِي؟

بِأَيَّةِ حُجَّةٍ أَحْتَجُّ يَوْمَ الْحِـسَا بِ إِذَا دُعِيْتُ إِلَى الْحِـسَابِ؟

هُمَا أَمْرَانِ فَوْزٌ أَوْ شَـقَاءٌ أُلاَقِي حِيْـنَ أَنْظُـرُ فِي كِتَابِي

فَإِمَّا أَنْ أُخَلَّـدَ فِي نَعِيْمٍ وَ إِمَّا أَنْ أُخَلَّـدَ فِي عَذَابِ

و يظهر من خلال ذكره المتكرر للفظة الموت ، في قاموسه الشعري أنه خاض صراعا نفسيا مريرا بين نشوة اللهو و المتعة ،وغُصّة الموت و الحساب .. وراح تدريجيا ، في مجاهدة عسيرة للنّفس التي ألفت الاسترخاء و العربدة ، يتسلّل من قاع ظلمات المعاصي إلى لمعان النور الذي أضحى بصيصه ينقشع ، ويتضاعف بريقه ويكبر ، كلّما تذكر الشاعر أيامه الخليعة التي قضاه فيما يضر ولا ينفع ..

تصفو الروح ، ويصحو الضمير واقفا مؤنبا، واعظا هذه النفس المترفة بالتوبة النصوح ممحضا إياها النصح ، جاعلا أشعاره عبرة و حكمة للقرّاء .

تأمل أحاسيس الشوق و ما يحيط بها من حالات وجوم يُنَغِّصُ المقام ، والفكر في طموح جامح إلى التسلل من دنس الغرور ،في توق إلى صفاء يرضي الرحمن ، ويبسط ستار الطمأنينة .

سُبْحَانَ عَلاَّمَ الْغُيُـوبِ عَجَباً لِتَصْرِيْفِ الْخُطُوبِ

تَعْدُو عَلَى قَطْفِ النُّفُو سِ وَ تَجْتَنِي ثَمَرَ الْقُلُوبِ

حَتَّى مَتَى يَا نَفْسُ تَغْتَرِّ يْنَ بِالأَكْـلِ الْكَـذُوبِ

يَا نَفْسُ تُوْبِي قَبْـلَ أَنْ لاَ تَسْتَطِيْـعِي أَنْ تَتُوبِي

وَاسْتَغْفِرِي لِذُنُوبِكِ الـرَّ حْمَنَ غَفَّـارَ الذُّنُـوبِ

و لم يَعْدُ يبحث عن هداية نفسه،وخلاصها من قذى معاصي تتخلّلها ، بل هو يحب الخير للجميع ، ويتوجه إليهم بالإرشاد و التوجيه،لأولئك النائمين الكسالى،الغافلين المغرورين ، حينما يلتفت إليهم :

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْماً فَلاَ تَقُلْ *** خَلَوْتُ ، وَ لَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيْبُ

وَ لاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفَلُ سَاعَــةً *** وَ لاَ أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيهِ يَغِيــبُ

لَهَــوْناَ بِعُمْــرٍ حَتَّ تَرَادَفَــ *** ت ذُنُوبٌ عَلَى آثَارِهِــنَّ ذُنُوبُ

إن الدنيا المتقلبّة التي لا تثبت على عهد ، جدير بالمرء فيها الثّبات أمام كدارة الصبر ، فهو الزاد الوحيد ، وادخار العمل الصالح يوم ينفع القلب السليم وحده ، ولا ينفع المال و البنون ، والصاحبة و الأهل .. يوم يُلْقى المرء محتضرا على فراش الموت البارد ،و الأحبّة و الخلاّن من حوله ينادونه فيعجز عن الرّد ، وهو يجهل مصيره.. ليتني التفتُّ مع القارئ الكريم ، إلى غرور النفس متأملين هذه اللحظة العسيرة ، متدبرين ما عبره السابقون وهم على أبواب الآخرة .. كل هذا مرّ به الشاعر ، ومشاعره ترقّ إلى ربّه ، ولفظه يضرف ويلطف ، وقد أجاد تصوير المواقف :

اِصْبِرْ لِمَرِّ حَوَادِثِ الدَّهْــرِ فَلَتَحْمَــدَنَّ مَغَبَّــةَ الصَّبْــرِ

وَامْهُدْ لِنَفْسِــكَ قَبْلَ مَيْتَتِهَا وَ ادَّخِــرْ لِيَوْمِ تَفَاضُلِ الذُّخْــرِ

كأنَّ أَهْلَكَ قَــدْ دَعَــوْكَ فَلَمْ تَسْمَعْ وَ أَنْتَ مُحَــشْرَجُ الصَّدْرِ

وَ كَأَنَّهُمْ قَــدْ عَطَّــرُوكَ بِمَا يَتَذَوَّدُ الْهَلْكَى مِـنَ العِـطْــرِ

وَ كَأَنَّهُمْ قَــدْ قَلَّبُــوكَ عَلَى ظَهْــرَ السَّرِيْرِ وَ ظُلْمَــةَ الْقَبْرِ

يَا لَيْتَ شِعْرِي،كَيْفَ أَنْتَ عَلَى ظَهْرَ السَّرِيْرِ وَ أَنْتَ لاَ تَــدْرِي

أَوْ لَيْتَ شِعْرِي ،كَيْفَ أَنْتَ إِذَا وُضِعَ الْحِسَابُ صَبِيْحَةَ الْحَشْرِ

مَــا حُجَّتِي فِيمَا أَتَيْتُ ، وَ مَا قَوْلِي لِرَبِيِّ ، بَلْ وَ مَــا عُــذْرِي

يَا سَوْأَتَا مِمَّا اكْتَسَبْتُ ، وَيَــا أَسَفِي عَلَى مَا فَاتَ مِنْ عُــمْرِي

وينشرح صدره نهائيا للواحد الديان ، متصلا بالعروة الوثقى ، داعيا ، متضرعا ، خاشعا ، مخبتا ، نادما على ما فاته من خير ،خائفا جزاءه من سوء العاقبة ، مستعطفا بارئه ،صادقا مخلصا في توبته.إنه الشعور بدُنو الأجل ، ويقين الإيمان برحمة الله الواسعة .. هكذا تنبعث الكلمات ، في زفرات فاترة تحمل الإغاثة و النجدة ، آملا في نفحة ربانية تحفه بعنايتها اللطيفة .

ويستغرق في الدعاء والابتهالات مقرا بكل ذنوبه :

أَدْعُوْكَ رَبِّي كَمَا أَرَدْتَ تَضَرُّعاً فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِيْ فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ

و في مشهد حيٍّ آخر :

فَإِنْ عَذَّبْتَنِي فَبِسُــوءِ فِعْلِيْ وَ إِنْ تَغْفِرْ فَأَنْتَ بِهِ جَــدِيْرُ

أَفِــرُّ إِلَيْكَ مِنْكَ وَ أَيْـنَ لاَ يَفِرُّ إِلَيْكَ ٱلأَجِيْرُ مِنْكَ الْمُسْتَجِيْرُ

ويطمئن قلبه بذكر الله ، ويتمادى في الخشوع ويستغرق ، ويزيد تعظيما وتنزيها لخالق الكون ، يروى أنه نقش على خاتم هذا البيت :

تَعَاظَمَنِيْ ذَنْبِيْ ، فَلَمَّــا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّيْ ، كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمُ

ويتمادى في الاستغفار ، ولا يهدأ ، فزعا ، جزعا :

أَيَا مَنْ لَيْسَ مِنْهُ مُجِيْــــرُ بِعَفْوِكَ مِنْ عَــذَابِكَ أَسْتَجِيْرُ

أنا ٱلعَبْدُ الْمُقِــرُّ بِكُلِّ ذَنْبٍ وَ أَنْتَ ٱلسَّيِّدُ الْمَوْلَى الْغَفُــورُ

و تتكرر حالات الاستغفار متوالية من الحين إلى الآخر ، مما يدل على الندم الشديد ، والرغبة في القبول :

يَا رَبِّ عَظُمَتْ ذُنُــوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ

إِنْ كَانَ لاَ يَرْجُوكَ إِلاَّ مُحْـسِنٌ فَبِمَنْ يَلُوذُ وَ يَسْتَجِيْرُ الْمُجْرِمُ

و الشاهد هنا على الحضارة العباسية أنها تركت مجال الحرية فسيحا للبشر كي يدخلوا الإسلام طواعية .. كان على المسلمين المعاملة ، وكان على غيرهم التفكير في حياة حرة يعيشونها .

الحب عند الشيخ " بوعمامة ": [1]

المشهور عند المتصوفة أنهم مؤمنون صادقون ، يزهدون في الدنيا ، ويعتكفون على أحوالهم وينطوون على أنفسهم ، ويجتنبون الممارسة الدنيوية ، مع باقي البشر .. ينزوون على التلاوة القرآنية والذكر الدائم ، وغايتهم الله .. و وسيلتهم صقل نفوسهم من كل هوى ذاتي يدنسها ، حتى تصفو لبارئها في مناجاة دائمة .. ويعيب عليهم البعض أنهم لا يجالسون الناس فغضّوا أبصارهم عن هذا الجهاد، ويعتقد هؤلاء أنهم يختلفون عنهم في مباشرة شؤون دنياهم، فهم عاملون في الواقع ، واقفون مع الحق ، دافعون للباطل ..

فالفرق إذن -كما أفهمه - هو في مخالطة الناس ،وتنبيههم إلى الحق ، والصمود عليه ، وتحذيرهم من الباطل وضرورة اجتنابه .. ويؤاخذهم البعض أنهم علماء بالدين،قصروا علمهم على أنفسهم طلبا للنجاة .. فهذا يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، وذاك يجتنب مجالستهم ..هذا منشغل بممارسة حياته بصفة عادية ، مجتهد في إخضاع واقعه للأوامر والنواهي ، وذلك منشغل بنفسه عن الناس ..

هذا التقديم يطرح إشكالا : هل كان الشيخ بوعمامة صاحب المقاومة الجزائرية الشهيرة ، متصوفا، وهو المجاهد الكبير طيلة ثمانية وعشرين سنة ؟

هل مجرد دراسته في كُتّاب الزاوية بالطريقة الوحيدة المعتمدة في عصره ، في بيئته ، تحكم عليه أنه متصوف ؟وهل كانت في عصره وفي بيئته مدارس نظامية غير الزوايا ؟ أولم يجعل الله الذاكرين في عليين ؟ وهل قيادته الحكيمة ، الخاضعة للسنة النبوية الشريفة ،لجيش بأكمله ، ومن يقف خلفه من قبائل ومواطنين غيورين على حريتهم ودينهم ، تجعل منه مجرد مجاهد ؟ الحقيقة أنه جمع بين الصوفية في تهذيبه لنفسه ، واعتكافه الدائم على الذكر في فراغه ،وبين المجاهد على

سيرة سلفه الصالح في قيادته الإسلامية المحضة لجنده ، وطريقة تسييسه للقبائل المجاهدة لفلول سرايا الجيش الفرنسي ..

و جهاده شاهد على أنه رجل الدنيا و الآخرة .. الدنيا في دفع الأذى عن المسلمين ، ورفع ظلمة المسخ و البطش الاستعماري ، و الآخرة في ابتغاء عليين .. جنان الفردوس..

إني أراه المسلم الصادق التابع لسنة محمد . صلّى الله عليه وسلّم . و لسيرة السلف المجاهد الصالح وكفى.. و اعتبره من عظماء الإسلام في العصر الحديث ..

فهو الزاهد في الدنيا ، المنشغل بصقل نفسه ، المجاهد ، السياسي ، القائد الحازم .. الدليل أنه أربك العدو في جهاده المرير .. وفي المقابل ظهرت فيه كرامات الأولياء الصالحين .. وإذا أمعنا في سيرة الرسول . ص . ،نجده يعتكف في العشر الأواخر من رمضان ، ويقوم الليل ، ولكنه لا يهمل شؤون المؤمنين من حوله ، ويقود الصحابة في الجهاد .. أوليس "بوعمامة" من أتباع محمد . ص . في الجزئيات والتفاصيل ؟

لاحظ العدو و هو يعترف له بإخلاصه لدينه .. وفي الصدق لحب الله ولرسوله وللمسلمين الجزائريين وغيرهم..

يقول الجنرال ليوثي في إحدى رسائله المؤرخة في 1903/03/14 : ".. كل المسلمين ينظرون إلى الشيخ بوعمامة أنه القائد الكبير الذي قاتل المسيح في الجزائر باسم الله ومحمد .. ويبقى في أعينهم رمز الجهاد والمقاومة ضد الغزو وضد الأفكار العصرية والصليب . "

والمقصود بالأفكار العصرية هنا ، الفكر التغريبي الذي كانت فرنسا تطمح إلى فرضه في الجزائر ..

---

(1) أقوال مأثورة للشيخ بوعمامة . الملتقى الوطني الثاني لمقاومة الشيخ بوعمامة ولاية النعامة .

ثمار محبة الشهيد حسن البنا :

يقين الإيمان بالله ورسوله ، وباليوم الآخر .. والخوف الحق من سؤاله عن عمره فيما أفناه ..كان دافعه الأساسي إلى سن طريق يهدئ روعه ، ويشفي غليله ، حين يشعر أنه أحسن حمل أمانة الإسلام على عاتقه ..

والمعرفة التامة بأسماء الله الحسنى ، كانت دافعه ـ ككل المسلم ـ إلى حبه وطاعته والتوسل إليه بعمل صالح،ويكتب له أجره ما خلدت جماعته بخلود الإسلام.

ودرجة العلم النافع تترجم نسبة الحب وتعكس العمل ..

ومقدار الصدق في الحب يترجم على أرض الواقع المعيش ، منتوج الثمار ، ولذتها ، وجودتها..

إن الثقافة العالية ، والوعي العميق بالحياة البشرية وحالتها في الأرض ، كانت الأرضية الصلبة التي شكلت المنطلق الفكري لعمل شهيد الإسلام في العصر الحديث ..

الفكر النظري الذي تجسد مباشرة عملا ميدانيا في الإعلان عن تشكيل جماعة من الإخوان المسلمين ، خير برهان على الوعي والعبقرية .. واستراتيجية التموقع والاعتدال والليونة ، والترغيب في الدعوة بحب وتوأدة علمية ، دلالة الدهاء والرؤية الواسعة ..

إن جهاز الحاسوب الذي صنعه الإمام الشاب - رحمه الله - سيظل يسجل له مقدار الأرباح ، ومقامه سيظل يزيد قربا من ربه إلى يوم الدين ـ إن شاء الله ـ ومن الدهاء أن يعي بيئته الإسلامية وتأثير الجاهلية الغربية ، وغلبة المسلمين المهزومين ... فيعتبر كل المسلمين مسلمين ولا يكره أحدا على التطبيق

أو الانتماء ، ولا يقصي أحدا .. بل الدعوة الصحيحة وحدها كفيلة بتحقيق الأهداف المرجوة ، والهداية من الله .. ومباشرة الحكم حين تسمح ظروف البيئة والمعطيات ، أو الاكتفاء بتثبيت الجماعة دون منازعة أحد ..يفرضها الزمان والمكان .

إنها ذهنية متفتحة ، واسعة الوجود ، لا تقف عند حدود، إلا حدود الشريعة الإسلامية..فهو لم يؤلف كتبا بل ألف ذهنية الجماعة المسلمة الواعية بالإسلام ، والمنهجية هي تربية النفوس على معرفة الإسلام بكيانه وتفاصيله ومن ثم مباشرة التطبيق الذاتي ..والقدوة بالسلوك قبل اللسان .

واستشهد إمامنا،وتضاعفت أعداد الجماعة مئات المرات، وانتشرت في العالم ، وستحقق حديث الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ "..الخلافة في الأرض.."بالعلم والاعتدال .. دون إثارة جاهل أو مغالبة قاهر .. ولا قاهرَ إلا الله . إن الإمام أدى رسالته في الوجود .. لمن أراد أن يقتدي .. وما أكثر المحبين في كتب السير قديما وحديثا ..

هكذا اختصر الإمام الحب و جمعه في حب الله و رسوله.. ونشره بين المؤمنين ..وختم الله حبّه بالشهادة .

الحب عند الشيخ "محمد بلكبير " : [1]

الحب يترجمه العمل الصالح ، ولا يكون العمل صالحا إلا إذا اقتدى صاحبه بسنة الرسول اللهﷺ .

فإذا كان الشيخ بوعمامة انحدر في أصله من صلب أبي بكر الصديق . رضي الله عنه . فإن الشيخ محمد بلكبير جاء من صلب عثمان بن عفان رضي الله عنه .

.

وهذه دلالة على أن ذرية الخلفاء الراشدين ، والصحابة نزحت إلى جانب آل البيت الأشراف ، من شبه الجزيرة العربية ، وعمرت المغرب العربي أثناء فتوح الأمْصار ، واستقر بعضها في الجزائر .

حيث ولد الشيخ في ولاية أدرار ، وعمّرها بالصالحات حتى لقي محبوبه .. تذكر سيرته أنه قضى حياته كلها ، بدون انقطاع ، في رحاب القرآن وما تفرع عنه من علوم ومصادر تشريعية .فقيها ، عالما ،بل المصداق المخلص، تقيا ورعا،رحب الذراع ، واسع الصدر ، متوكلا على الله ، مبددا ظلمات الشرك ، يفيض بنور التوحيد ..صبور على الشدائد والمحن ..

يبدأ يومه منذ الفجر في الذكر الجماعي الدائم الطويل ،ثم في المدرسة القرآنية ،يعلم التلاميذ الذين يفدون إليه من أرض العالم،خاصة البلدان الإفريقية المجاورة إلى جانب أبناء بلدته. لا يقبل فلسا ولا إعانة إلا ما صدر عن طيب خاطر من المحسنين الذين يحس أنهم يبتغون وجه الله دون منٍّ ولا أذى ،ولا تكبيل لحرية . منذ صغره ربته أسرته العالمة بتعاليم الإسلام ، المحافظة على أصولها ، على أن يشغل نفسه بالعلم والعبادة عبر الذكر الدائم ، والجد المتواصل ... فلا تنحرف إلى اللهو ، ولا تتطلع إلى ترف ، إذ لا مجال للفراغ ..

يبدو أنها أسرة لم تتلوث بسياسة التجهيل التي مارسها الغزو منذ قرون ، فعرفت كيف تختصر حياتها في رسالتها التي وجدت من أجلها .. ساهم بدهاء فائق في مساعدة المجاهدين الميامين إبان ثورة التحرير الكبرى ، سبحان الله وكأن الحب الحقيقي لا ينفصل أبدا عن الجهاد بكل أنواعه ودرجاته ..

تخرّج على يديه الكريمتين ، زهاء عشرين ألف فقيها . يحفظون القرآن ويتقنون الفكر الإسلامي ، كلهم الآن في مساجد المسلمين ، يسيرون على نهجه العلمي ، وينشرون الحق والعدل والعلم كما جاء به سيد الثقلين محمد . صلّى الله عليه وسلّم . .

ظهرت فيه كرامات جليلة تكشف عن مقامه الرفيع ، وتدل على ولايته .. ومع ما تمثل فيه من عظمة فقد اشتهر بالتواضع وحسن المعاملة والمجالسة ، وإسداء النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين .

عاش في الصحراء الجزائرية كقمر في تمام بدره يبدد ظلام الجهل بنور العلم . وما يدعو إلى تقديره أنه قضى أيامه صابرا على أداء رسالته الشاقة طيلة حوالي تسعين سنة قضاها من عمره ، وما تزال زاويته مستمرة يشرف عليها ابنه الكريم .

لو وجد أمثاله في كل إقليم لقاد الإسلام العالم في فترة وجيزة كما حدث في العصور الأولى . وهو مثال حي عن المحبين الصادقين ، حيث لا تسمح آثاره الجليلة في الأرض أن يعيبه عائب بشيء أو يؤاخذه على شيء .

---

(1) الإشراق الكبير . مولاي التوهامي غيتاوي . المؤسسة الوطنية للاتصال . النشر والإشهار

التصوف والشعوذة :

سواء أكانت الصوفية مشتقة من الصوف للدلالة على التخشن في الدنيا خوفا من رقة العيش فيها وما يجلبه للإنسان من غرور وترف وخيبة ..أو كانت تعبيرا عن الصفاء للقلب والسريرة .. أو تشمل معاني أخرى ..فإنها تعني تهذيب النفس وتربيتها على حب خالقها وتقواه والوفاء له ..وفي كل الأحوال، فإن خاصتها الأفاضل خبروا الدنيا ، وعرفوا المصير ..

" إن علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة...فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة"(1) .

ولم يخرج هؤلاء المتصوفون إلى بدع،بل أخوف ما يخافونه هو الوقوع في الضلالة والشرك ... وهو أحد الدوافع الحقيقية في اعتزال الناس ، و الاعتكاف على النفس قصد تصفيتها وصقلها من صدئها ، والزهد في الدنيا أملا في اجتناب معاصيها ..

" فلقد كان الرسول والصحابة والتابعون وما تنطوي عليه حياتهم الروحية من أقوال وأفعال تعتبر منبعا أصيلا ومصدرا حقيقيا لهذا الجانب العملي الأخلاقي في التصوف الإسلامي"..." نلاحظ مباشرة إجماع مؤرخي التصوف والصوفية أنفسهم على أن هذا العلم قد بنى قواعده على أصول صحيحة وقواعد متينة من الكتاب والسنة،وأن علمهم مشتق من الصفاء. " (2) .

(1) الشعراني : الطبقات الكبرى ج1 ، ص 4 .

(2) دراسات في التصوف الإسلامي : د.محمد جلال شرف : دار النهضة العربية طبعة 1984 ص 9-10

والمتصوفة يفرون دائما إلى الله ، مهاجرين إليه ... ذكرهم لله مستمر دون انقطاع ، فرديا أو جماعيا ، عادة ينفرون من الفتن ، ويجتنبون الانغماس فيها ، عندهم دائما الحابل مختلط بالنابل ، ويلزمون خاصية أنفسهم ...هم في عزلة عن الناس ، وصخب الدنيا ..

والتصوف يقوم على تأنيب الضمير ، ومحاسبة النفس ،والذكر الدائم والاستغفار القائم النابع من صميم القلب الصادق المخلص في شوقه إلى ربه :

لَقَدْ هَتَفَتْ فِي جُنْحِ لَيْلٍ حَمَامَةٌ عَلَى فَنَنٍ وَهْناً وَ إِنِّي لَنَائِمُ

كَذَبْتُ وَبَيْتَ اللهِ لَوْ كُنْتُ عَاشِقاً لَما سَبَقَتْنِي بِالبُكَاءِ الْحَمَائِمُ

وأَزْعُمُ أَنِّي هَائِـمٌ ذُو صَبَابَةٍ لِرَبِّي فَلاَ أَبْكِي وَتَبْكِي البَهَائِمُ

والمتصوفة يستضيئون بما أتيح لهم من أنوار معرفة دقيقة حقة ، يبنون مسالكهم الدنيوية على العلم، دائمو التأمل في الواجد وأحوال الموجودات .

ذكر عن الشقيق البلخي:"إني نظرت إلى الخلق فرأيت لكل منهم محبوبا ومعشوقا يحبه ويعشقه،وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت،وبعضه إلى شفير القبر ،ثم يرجع كله،ويتركه فريدا وحيدا ،ولا يدخل معه في قبره منهم أحد،فتفكرت وقلت : أفضل محبوب القلب ما يدخل في قبره،ويؤانسه فيه،فما وجدته غير الأعمال الصالحة ،فأخذتها محبوبا لي ، لتكون سراجا لي في قبري ،وتؤانسني فيه ، ولا تتركني غريبا " (1) .

ولذا تجد تفكيرهم مركزا في ما وراء الموت،وكيف يجتمعون بمصيرهم ، ومن سيكون جليسه .. فهي الباقية الدائمة ، والدنيا زائلة فانية ..

الزاهدون في الدنيا ، يكثرون تكرار الأحاديث الحاثة على ذلك .

" كُنْ فِي الدُّنيْاَ كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرَ سَبِيْلٍ " .

أو ما ذكر البخاري عن ابن عمر. رضي الله عنه . عن الرّسول . صلّى الله عليه وسلّم .: " إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك " .

فهم في زمرة " الذين آمنوا وعملوا الصالحات " .

أيضا ذكر البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:أن الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . قال :

" إن الله تعالى قال : مَنْ عَادَى لِي وَلِّياً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ،وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِيْ بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَىَّ أُحِبُّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعُهُ الذِّي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرُهُ الذِّي يُبْصِرُ بِهِ،وَيَدَهُ التَّي يَبْطِشُ بِهَا،وَ رِجْلَهُ التَّي يَمْشِي بِهَا،وَلأَنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَهُ ،وَلَئِنْ ٱسْتَعَاذَ بِي لأُعِيْذَنَّهُ ".

إن حب الله ورسوله هو الذي يفيض على المؤمنين حب البشر والمخلوقات أجمعين ، حب في الله لا مصلحة فيه سوى أنهم مخلوقات الله .. ومن باب إخلاص الحبيب لمحبوبة ، وتفانيه في الصدق والوفاء - حينما تكتمل العقيدة ، ويبلغ المتصوف اليقين في المعرفة - يبحث المؤمن عن كل ما يرضي الله فيعمل به

هتفت : نادت جنح الليل : منتصفه الفنن : الغصن

الوهن : جزء من نصف الليل هائم ذو صبابة : ذو شوق ووجد .

(1) أيها الولد المحب : أبو حامد الغزالي . تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة دار الشروق طبعة 1984 ص 10-9

ويتثبت ، وعن كل ما يغضبه فيمقته ويتجنبه ، فيمتثل للأوامر والنواهي حتى يجد نفسه من أخلص الناس في تطبيق المنهج الرباني .. ويرتقي المؤمن في حبه حتى يغضب بغضب الله ، ويرضى برضاه ، فيكون الله يده التي يبطش بها ...

"جاء جبريل . عليه السّلام . في صورة أعرابي ، فسأل الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . يا مُحَمَّد مَتىَ السَّاعَةُ ؟ قَالَ : وَيْحَكَ إِنَّهَا كَائِنَةٌ فَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ قَالَ : أَماَ إِنِّي لَمْ أُعِدَّ لَهَا كَثْرَةً مِنْ صَلاَةٍ وَلاَ صِيَامٍ ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، قَالَ : فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ .

قال أنس : فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث ".

ظهرت بوادر التصوف عند السلف الصالح ، زهدا في الدنيا ،رغبة في الآخرة ،حبا في الفوز برضى الله تعالى ،كموجة غضب معاكس حينما بدأت البيئة الإسلامية تتفسخ ، بفعل انحراف سلوكات بعض الناس ، وما صاحبها من فساد في الأخلاق ، واستهتار بالقيم ..

فكان سموا روحيا ، يتقرب فيه المتصوف إلى ربه ،بصقل نفسه وتبرئتها من كل دنس ، أو شبهة توقعها في الشك والضلال ..

حتى كثر المتصوفون المشهورون في التاريخ وظهرت فيهم الكرامات الربانية ، التي تترجم العرفان بولايتهم .. ومطيتها الحب لله ولرسوله ..

وبدأ مع مرور الزمن ، بالتقادم ، يقل العلم عند الناس ، وتمضحل معرفتهم بالله ، وانحط المستوى الإنساني عند المسلم ، وأساء الفهم.. وتشعبت الطرق ، حتى بلغ المستوى الفكري الضعيف درجة دخول الشيطان إلى ساحة الملعب ليدير الشؤون بنفسه ويشرف عليها ..

وسرعان ما وجد المشعوذون والسحرة طريقهم إلى قلوب العامة الجاهلة من الناس...يظهرون التصوف عبر الآيات القرآنية والذكر ، ويبطنون الأباطيل ، يوهمون السوقة أنهم ذوو كرامات ،وفي الواقع هي شطحات شيطانية ..

حتى أصبح اللبيب فقط من يفرق بين المتصوف والمشعوذ ..

ولم يسلم حتى العلماء من مطاردة المشعوذين لهم ،ومن يعتقد في صلاحهم من العامة.. وإلْتَبَسَ الأمر على الناس ولم يفرقوا بين هذا وذاك .

ولم ينج حتى القرآن الكريم من سخافاتهم ، والسُّنَّة من ادعاءاتهم ..

حتى أصبح المسلمون أولى بالدعوة إلى الله من غيرهم ، لاختلاط المفاهيم عليهم ..

لكن المتعارف عليه ، والذي يميز الصالح من الطالح ، أن المتصوفون لا يطمعون في شخص كان،متعلقون بالله ولا يحبون أن يكشف أحد أسرارهم .. وهذا مصدر التميز بين هذا و ذاك ..

و المتصوفة متواضعون ، لا يتجرؤون على شيء ، يتخفون ،لا يفتخرون بعبادتهم ..ولا يزكّون أنفسهم..

فليحذر المسلمون .. المشعوذون يستخدمون الشيطان في إيقاع الناس في شرك حب المرأة،وكلّ ملذّات الدّنيا، والعكس، ويدعون أن جنهم من الصالحين ، والصالحون أبرياء أمام الله ..

وكثير من الناس ينتسبون إلى طريقة بعض "الزوايا" ، ويمارسون بعض الطقوس التي تتنافى والسنة المحمدية .. ولا مجال لمجادلتهم ، نذكرهم فقط أن أهل الجاهلية ، كانوا يحجون مكة المكرمة ، لكن حجهم كان مجرد " مكاءً وتصدية " كما ورد في القرآن الكريم ..

القرآن الكريم يحث المؤمن على اعتبار الدنيا دار ابتلاء والآخرة دار قرار ، ولا نجد فرقا بين أهل السنة وما اصطلح عليه بالمتصوفة إلا أن جماعة السنة يحكمون بالظاهر من السلوك أما المتصوفة فيهتمون بباطن الإنسان ويركزون على صقل النفس وتصفية القلب .

الحب مذاهب :

لأهمية الموضوع في حياة الإنسان ، وخطورته ، وتأثيراته الإيجابية والسلبية على نفسية الأفراد والجماعات ، فإن مؤلفات كثيرة تزخر بها المكتبات العالمية ، طرقت الحب ، وهي على مذهبين متناقضين كبيرين .

1 . الفكر الذي يعتمد ، في تعليل الظاهرة ، على المنهجية التاريخية المادية ، يلصق دوافع الحرمان والمنع بالقهر الاجتماعي ، ويعبر عنها بالثقافة القمعية .. وهو فكر متفتح على مبدأ إشباع الغرائز على الطريقة " الفرويدية ".. "ومن نتائج هذا الانشطار الداخلي كان لابد لتوتر معين أن يسود الأفراد .وهو التوتر الذي مازال قائما حتى اليوم في كل ثقافة قمعية ... ولعل أبرز مرحلة انبسط فيها هذا التوتر هي المرحلة الأموية برهة اشتداد ضغط التاريخ على الأصالة الطبيعية السابقة على التجربة الاجتماعية، أي على الغرائز ، ولا سيما غريزة العشق" (1).

لهذه الغرائز قيم تربوية إسلامية تهذبها ...

وفي نفس الفصل ، ينقض ما ذكره عن الثقافة القمعية ، وهي ليست كذلك ، ولا يربط التحول الحادث من العصر الأموي إلى العصر الحديث بانتشار الوعي لدى المسلم ، واستفادته من دروس الماضي ، بل يلصق ضيق دائرة العشق . إن كانت كذلك . بانشغال الإنسان بمشاكله اليومية .. وفي كل الأحوال الحب طبيعة في الإنسان والإشكال في كيفية توظيفه وتصريفه وتوجيهه : " إن الإنسان المعاصر الغاطس حتى أذنيه في مشاغله

---

(1) الغزل العذري : يوسف اليوسف . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 1981 . ص 12

اليومية قل أن يكون في مقدوره أن يعشق ، لأن الشرط الاجتماعي يدفعه بقوة نحو تدبير شؤونه العملية ، بحيث لا يترك لديه وقتا كافيا إلا لهذه الشؤون ، مما يضطره إلى ممارسة الحب أو بوصفه عملا إضافيا ، فالأصل أن العمل هو ما ينبغي أن يمارس ممارسة إضافية ، ولكن الحضارة تضع الحصان وراء العربة ، إذ هي تعطي الصدارة أو الأولوية للعمل وتدفع الحب إلى المرتبة الثانية" (1).

هذا قتل للعقل والواجب وإحياء للمشاعر والعواطف..و النزوات ..

ويعترف أن الفراغ الروحي ، والراحة البدنية هي دافع العشق ، ولكن مهما قيل ، يبدو أن مجتمع البادية في عهده الإسلامي الأول كان قليل الثقافة بالكيفية التي نظم بها الإسلام الحب عبر علاقة الزواج التي تجمع شتات النفس المنشطرة ، كما يقر أن الحب انحراف عن المسار الحقيقي للإنسان :" لا يعدو الحب كونه كسلا مطلقا على المستوى الخارجي ، وتفجرا فوّارا على المستوى الداخلي ، الشيء الذي لا يخدم الأغراض .

"كلما تعمق العشق تعطل الذهن " (2).

---

(1) الغزل العذري : يوسف اليوسف . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 1981 . ص 21.20

الكبرى للتاريخ " (1).

(2) نفس المرجع . ص 16

ويبدو الكاتب مشفقا على العاشقين ، مستنكرا على المجتمع الحضاري الرسالي قمعه للأشخاص المعارضين لمشروعه الثقافي ، ولكنه يدرك :

" ويكرس ابن الجوزي في مجمل كتابه (ذم الهوى) الهام جهوداً كبيرة لكي يبرهن على أن العشق بؤس ينبغي اجتنابه " (1).

2 . الفكر الإسلامي الذي ينطلق من صميم المنهج الرباني في تعليل الظاهرة ، وممثلوه في الساحة لا حصر لهم لكثرة المهتمين بحياة الطهارة لدى المسلمين ، حيث ظلوا يكشفون عن مخاطر الحب عبر العصور ..ويذكر نفس الكتاب السابق :

" فلقد اشتقت اللغة العربية لفظة الهوى من الفعل هوى . أي سقط ، وقرنت الهوى بلفظة الهوان الذي هو أشد حالات الذل "2) .

كما يذكر قول ابن الجوزي : " والتتيم حالة يصير بها المعشوق مالكاً للعاشق ، لا يوجد في قلبه سواه ، ومنه : تيم الله . ثم يزيد التتيم فيصير ولها ، و الوله الخروج عن حد الترتيب ، والتعطل عن أحوال التمييز " (3).

ويعرف الحب بأنه : " الإقامة والثبات " (4).

---

(1) الغزل العذري : يوسف اليوسف . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 1981 . ص 22

(1) الغزل العذري : يوسف اليوسف . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 1981 . ص 23

(2) نفس المرجع . ص 22

(3) نفس المرجع . ص 15

مهما يكن الأمر فالعاشق وجد صورة يشتهيها،أو روحا تكمل وجدانه فعلق بها من بعيد ، دون غوص في تفاصيلها ليكشف العيوب عبر الزواج ...

فَلاَ نَيْلَ إِلاَّ مَا تَـزَوَّدَ نَاظِـرُ وَلاَ وَصْلَ إِلاَّ بِالْخَيَالِ الَّذِيْ يَسْرِيْ

بل قلة اللقاء والاشتياق جعلاه يرسم لعشيقته صورة خيالية تضفي على واقعها جماليات تنتهي بها إلى الكمال في وعيه ، ورسم لها مبادئ وأفكارا واستنطق روحها عبر المناجاة ،كما يشاء هو ، لا كما هي روحها على حقيقتها .. هذا الكمال الجسدي في الجمال كما رآه ، والكمال ـــــــــالروحي في النبل والطهارة الذي صنعه من تلقاء خياله هو الذي فرض عليه التفكير الدائم ،وأخرجه من واقع الجد والاجتهاد وممارسة الحياة بصورة طبيعية إلى الحلم والخيال والاعتكاف والاعتزال لينطوي على صورته،صانعا حياة خيالية ، وهيهات راحة البال :

كَأَنَّ فُؤَادِايْ لَيْسَ يَرْوِيْ غَلِيْلَهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَانِ يَمْتَزِجَانِ

والعاشق عفيف ، وعفته تعود إلى ما رسمه من حلم بعيد عن الممارسة الفعلية الواقعية :

أُحِبُّكِ يَا لَيْلَى عَلَى غَيْرِ رِيْبَةٍ وَمَا خَيْرُ حُبٍّ لاَ تَعِفُّ سَرَائِرُهُ

وهو صادق وفي ، مكتف بمعشوقه ، مترفع عن كل دنيئة ، كما تعلن ليلى الأخيلية .

وَ ذِيْ حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ : لاَ تَبُحْ بِهَا فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيَيْتُ سَبِيْلُ

لَنَا صَاحِبٌ لاَ يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَهُ وَ أَنْتَ لأُخْرَى صَاحِبٌ وَخَلِيْلُ

الفـــــــصل الثالث:

الحب والتربية :

الحب عنصر عاطفي لصيق بالنفس البشرية .. فهو عين الأهواء النفسية .. بل مصدرها وباعثها ..

تضبطه ضوابط،وتؤطره العقيدة..فهو ثمرة تربية..إما أن ينبثق عن منهج رباني وضحه القرآن وصرفه إلى مجالاته الموضوعية ، وفصّل معالمه الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ .. وإما تؤسّسه العادات والتقاليد.. أو يمارسه الإنسان في منأى عن كل قيود .. حسب فطرته وما يمليه هواه ..

اتبّاع طريق من هذه المنطلقات الثلاثة ، في حياة البشر ، توجهه التربية وتؤطره،وتعطيه صفته اللازمة حسب الحالة،فإن تلقى المرء ـ ذكراً كان أو أنثى ـ منذ نشأته الأولى ،عقيدة سليمة ،وتعرّض أثناءها لعنصر الحب كجزء في المنهج الرّبّاني يدرس من خلاله ، المقصود بالحب في الشريعة والأدب الإسلامي ؟ والكيفية التي ينبغي أن يتمّ عليها ، وما هي ضوابطه ؟ ونشأ نشأة ربّانية ، يعرف في ممارسته اليومية ، كيف يتعاطاه مع الله ، مع النّفس ، مع المجتمع ... يجد نفسه في كنف الفضيلة يتقلّب ، يمارس حياة طبيعية ، يؤدّي فيها رسالته التي خلق من أجلها .. في طهارة وجدان ، ووضاءة وجه ، ونظافة مشاعر ، مرتاح الضمير ، هادئ البال ، مطمئن الخاطر ، قرير العين ، حرّ ، طليق من كلّ قيود حاجزة ، مانعة ...

و المصالحة مع الذات هي نتاج حب صحيح .. وبعدها .. مسالمة كل أبناء البشرية..

وإنَّ تلقى تربية موافقة للأعراف في مجتمع يدين بالعادات والتقاليد ، وانضبطت نفسه تلقائيا ، وانطبعت بمعايير هذه القوانين الاجتماعية التي تخضع للعرف ، ولا تفرّق بين الحق والباطل ، عاش كما يريد المجتمع لا كما يريد هو .. تتقيّد حرّيته ، وتُكْبَتُ ذاته .. فهو أسير العادات الاجتماعية ، لا يمكنه التملّص منها ..

وإن ثارت ثائرته ، ووافق هواه ، وتحرر من كل قيد،وطغت نفسه .. خرج عن مألوف الجماعة،ليجد نفسه منبوذا،مخلوعا،لأنه في منظورهم خليع .. ويقضي حياته وحيدا ، كئيبا ، قلقا ، تعيسا .. ذلك ببساطة أن الطرف الآخر لا يوافقه في هواه ، وما ترغب نفسه فيه .. وإن تعلق بعقيدته في مجتمع منحرف تَغَرّب .

وإن تحرر الذكر والأنثى معا ، وكلاهما يحب الآخر ، عزلا ونفيا ، ليعيشا غريبين عن مجتمع النشأة الأولى ، ويفقدان حتى الأهل والأقارب ..

لاحظ لطافة الإسلام ورأفته بالروح البشرية ..

ندرك من كل هذا الكلام ، أن المحيط الذي يعيش في وسطه الإنسان هو الذي يوجه الحب بفلسفته وتوجهه العام ،والمجتمع هو الذي يختار منهج معيشته..والفرد كائن اجتماعي ..

والحب فطرة بشرية أودعه الله في خلقه ، لا يتجرد منه إنسان مهما حاول ..

وهو سلاح ذو حدين ، إما أن يكون حجة لصالح الإنسان أو حجة عليه .. فإذا ما أحسنت المنظومة التربوية ، داخل المجتمع ، استخدامه ، في صفته الإيجابية ، النافعة لنفس الفرد ، وأجاد توظيفه في الحياة الدنيا ، وجعله : لله ، و ، في الله .. حسنت عاقبته ، وعاد على صاحبه بالنعم ، وحَدَّثَ به دون حياء أو وجل ، وبكل فخر ..

أما إن تغاضت التربية عن دوره الفعال في تحصين نفسية الفرد ، وحمايتها من الزيغ والضلال ، وأهملت تفاصيله ، وتركت الفرد جاهلا بمعانيه وأنواعه ، ونشأ الشباب ، وهو يجعل حب غير الله ، أو الحب في غير الله هدفا في حياته ، وخضع لملذات حياة الدنيا ، ونزوات النفس ، فهو وبال وخيم النتائج على صاحبه ، سلبي في حياته .. يمنعه عن أداء رسالته في الحياة ، ويتسبب في سوء العاقبة ..

سنرى أن الحب الذي أراده الله لعباده ، هو الحب الذي يصير فيه العقل هو القائد الحقيقي الذي يتحكم في العواطف والأهواء .. أما الحب في غير الله ،

فقائده النزوات التي تثقل العقل ، وتجعل صاحبها ، يذوب في الخبل ، فهو مخبول ، .. أي فاقد للوعي والتمييز ..

سنجوب . إن شاء الله . عبر هذه المجالات الثلاثة ، بعض المحطات التاريخية ، التي تسجل بعض الأحداث الغرامية الفاشلة، وكيف رسمت مستقبل أبطالها ، وكذا الناجحة .. وسنرى موقف العقل من كل حادثة .. وسنقف عند بعض نماذج الزواج الناجح ، وصفات أبطاله الخلقية التي رسمت معالم سعادته ، وكيف طغت العقيدة كلية على نفسية بعض الأسماء التي يدرك القارئ مباشرة عقيدتها المكينة في أعماقها ،وكيف منعت العقيدة دواعي الانحراف ، وصنعت هذه السعادة الشخصية ، وسطرت طريقها السوي ..

كرامة المرأة في قوة الرجل :

المرأة .. حياة الرجل ومأواه .. والرجل حياة المرأة وزينتها .. علاقة أبدية متكاملة ، لا يستغني فيها طرف عن الآخر .. ذلك أننا لا نتصور حياة على وجه الأرض في غياب طرف منهما .. ولا فائدة من ماضي لا يلقننا دروسا ، وتاريخ لا نسن من عبره قوانين ..

ثبت في الشعر الجاهلي أن المرأة كانت محل احترام الرجل ، وكان يعتبر حفظ حيائها من الفضائل التي تزين صورته لديها ، فغض البصر من الحسنات التي تَحَلَّى بها العربي ، وهذه دلالة صفائه وعفته .. يقول عنترة بن شداد :

وَأَغُضُّ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِيْ حَتَّى يُوَارِيْ جَارَتِيْ مَأْوَاهَا

وهذا أيضا ، لقيط بن يعمر الإيادي الجاهلي ، وهو يحرض قومه على الاستعداد للحرب ، ويحذرهم مما يدبره لهم كسرى من مكائد ، يكشف لنا عن حياة كاملة تترجم هذه العلاقة القائمة بين الطرفين ، حيث يقول :

يَا قَوْمِ . إِنْ كُنْتُمْ غُيُراً عَلَى نِسَائِكُمْ . لاَ تَأْمَنُوا كِسْرَى وَمَا جَمَعَا

" الغيرة " لفظة كافية في البيت لترجمة المعاملة .. عند الجاهلين بصفة خاصة ..

الغيرة من الشيء تكون في حالة الشعور بالنقص اتجاهه ، عند النفوس المريضة والقلوب المعتوهة ، حينما يرفضون أن يروا الْمَغِيْرَ منه تميز عنهم في صفات محمودة ، فيتطلعون إلى ما هو فيه من خير ونعيم .. وقد ينتقل هذا الشعور الخسيس إلى حسد ، ثم إلى ردع وتمني زوال نعمة المنعم عليه .. ونكتفي بهذا لنفهم العلاقة السيئة بين الغائر و الْمَغِيْرَ منه .. وما يلاقيه هذا الأخير من قمع وبطش وإهانة .. إنها الرغبة في تنغيص حياته. ولو كان الرجل الجاهلي ينظر إلى المرأة هذه النظرة لكانت محل حقد وكراهية ،ولَهَضَمَ حقوقها ، ولقضى على نفسه بنفسه ..

لكن الشاعر قال : " إِنْ كُنْتُمْ غُيُراً عَلَى نِسَائِكُمْ " .

وشتان بين " مِنْ " و " عَلَى " .

فالغيرة على الشيء . ترسخ في شعور الإنسان الباطن ، و الْمَغِيْرَ عليه يكون محل اهتمام ، وشدة حب ،وقوة تعلق إلى درجة عدم الاستغناء عنه .. والإنسان يغار على الشيء حينما يعلق بحياته فيرغب في امتلاكه ، والمحافظة عليه ، فهو موطن راحته ، وفضاء سكنه ، ومنبر مناجاته ،وموقع سعادته .. هذه هي علاقة الجاهلي بالمرأة . والنساء هاهنا هن الأم والزوجة والأخت والبنت ، وكل من وجبت حمايتها ..

ويكفي أن يبدأ كل شاعر جاهلي قصيدته بالبكاء على الأطلال وتذكر الحبيبة ، لتدرك مكانة المرأة في قلب الجاهلي ..

من هذه المنطلقات وغيرها ، كانت القبيلة الجاهلية ، حينما يقع الصراع بينها وبين نظيرتها ، وتفكر في إبادتها والإغارة عليها .. فضلا عن كونها تقتل لتصل إلى الغنائم ، تأخذ السبايا وعلى رأسهن المرأة .. ذلك أن المرأة تمثل قمة كرامة الرجل الجاهلي ، وبقدر تعلقه بها وغيرته عليها ، بقدر ما تكون الإهانة والذل .. انتقاما من المغلوب ، يتزوج غالبه زوجته أو ابنته أو أخته ، ويسترِقُّها ويستعبدها .. فمن منا يقدر حجم هذا الإذلال .. عندما تُسْبَى المرأة ويطأطئ الجاهلي رأسه طيلة حياته .. والجرح يوخزه ويؤلمه في كل لحظة من لحظات حياته .. ويبقى محل ازدراء بين القبائل .

بقدر ما هي المرأة مركز كرامة ، بقدر ما هي موضع إهانة ..

إذا والحرب سجال يوم لك ويوم عليك، لم تكن فيها الغلبة مطلقة لقبيلة ..

هذه الكرامة النسبية المتغيرة ، والتي أصبحت المرأة محورها الرئيسي ، تفقد نهائيا بسبب سبيها ..

الكرامة والسبي ، صفتان متناقضتان حمّلتا المرأة الكوارث ، وجعلتاها مصير فضيحة ، ومركز بؤس للرجل الجاهلي الذي كانت كرامته هي عقيدته وقد عبر القرآن الكريم عن الحالة بدقة متناهية يتأملها كل لبيب :

" وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ {٥٨} يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ {٥٩}" سورة النحل : الآية 58 – 59

فهل ماتت مشاعر الرجل اتجاه المرأة نهائيا وقسا قلبه..أم تصارع واجب الحفاظ على الشرف والكرامة مع وأد البنت فتغلب الواجب على الحب ؟

" وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ {٨} بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ {٩} " سورة التكوير : الآية 8 – 9

فالموؤدة ضحية نزاعات مصالح ، والبيئة قائمة على العصبية .

وهذا صحابي جليل ، يتذكر أيام وأد ابنته ، وهو يقودها إلى قبرها ، وهي تعبث بلحيته ، وتضحك ببراءة تامة .. ويبكي البكاء الشديد ..

إنها الظروف القاسية وما يترتب عنها من هوان هي الدافع إلى قساوة الأب ..

ولئن كانت المرأة قد عانت في إنسانيتها ووجودها ، فقد جاء الإسلام بالفرج ، واستبدل الرذيلة بالفضيلة ، وجعل كوامن الضعف أسباب قوة .. وجعل حياتها من حياة الرجل ، وحث على حماية العرض وحتمت الأخوة الإسلامية وما يتبعها من مساواة ، على الرجل الدفاع عن المرأة ، وتوعد المدافع عنها بالجنة ..

ولما تشكلت القوة الإسلامية في المدينة المنورة ، وذهبت المرأة المسلمة المتحجبة إلى اليهودي الصائغ لتشتري ذهبا ، حاول أن يساومها في عورتها بأن تكشف عن ذراعها أو أحد أطراف جسدها ، حقدا على الحجاب الذي ميز المؤمنة عن المشركة ، فمنعته .. وقام غلامه بربط ذيل حجابها على الكرسي فقامت وتكشفت عورتها فاستغاثت : وا إسلاماه ! وكانت النتيجة أن أول مسلم

قريب منها ينجدها ويطعن اليهودي ليرديه قتيلا ،والتف اليهود وسقط شهيدا .. وحاصر الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ اليهود ، وطردهم ودعا عليهم ..

فمتى صينت كرامة المرأة ؟عندما قوي الرجل بالإيمان ،وأدرك نتائج الأمور .

وهذا المعتصم بالله خليفة المسلمين ، تصله استغاثة المسلمة التي أسرها الروم :

وا معتصماه ! وا إسلاماه.! فيسمع بالخبر ويقوم من على عرشه ويقول:لبيك أختاه! ويصل التهديد إلى ملك الروم فيبعثها في مجموعة من النساء، معززة مكرمة ، محملة بالهدايا .. إنها القوة التي حفظت كرامة المرأة ..

فالتاريخ الإسلامي شهد في حادثتين عظيمتين ، أن واجب كل مسلم حماية كرامة المرأة .. و واجب كل إمرأة الاجتهاد بكل ما أتيح لها من وسائل مادية ومعنوية في توفير ما تملك من أسباب قوة للرجل ..

فهي الأم والمعلمة التي تربي الأجيال فتقويهم في عقيدتهم وتغرس قيم الفضيلة فيهم ،وهي الزوجة والأخت والبنت التي تصلح فتصون كرامة الرجل .

فالعلاقة بين الرجل والمرأة علاقة تكاملية وليست تعارضية .. الذكر قوام على الأنثى بدلالة توليه شؤونها .. والحماية متبادلة ..كلاهما يحمي شرف الآخر .. كل معد في مجال تخصصه ..

أسباب حفظ الكرامة :

لعل القارئ الكريم . اهتدى إلى خلاصة ، بعد هذا التحليل المستقصى من الشواهد التاريخية المسرودة .. الخير الذي تجنيه المرأة من قوة الرجل ، والشر من ضعفه ...

ولعله اقتنع أن لا حياة للمرأة إلا في كنف رجل قوي ..

لكن هذه القوة المعنوية قبل المادية ، تبنى على أسس تربوية لا بد أن تعيها المرأة ، حتى تساهم سلوكا في تقوية الرجل .. وحتى يحصل ذلك ، لا بد أن تعرف متى تتسبب بسلوكها في إضعافه أو العكس..أن تعرف قيم الفضيلة فتعتنقها ، وتعرف الدمار النفسي المترتب عن ممارسة بعض قيم الرذيلة ..

إذا كانت هذه القوة هي أساس حفظ الكرامة .. فعلى المرأة أن تساعده في بلوغها ..

أن تعرف ما هو عيب في سلوكها فتجتنبه .. ما هو محمود من أفعال في مجتمعها فترتديه..أن تنضبط في سلوكها بضوابط المجتمع الذي تعيش فيه .. وضوابط المجتمع هي صفات تنحدر عن هُوية الأمة التي ينتمي إليها الأفراد ..

ما لم يتحول هذا الفكر النظري إلى فعل ميداني .. تتأسس لشأنه جمعيات ثقافية ، ترفع شعار : القوة في حسن المعاملة ، والثقة المتبادلة ..

سيبقى الكلام حبرا على ورق ..وحديث تلوكه الألسن ..

إن الحضارات الجادة ، أسقطها " اللهو " عبر التاريخ ..

و الإسلام إنما يقصد من وراء حفظ الكرامة ، حفظ النفس و تقويتها لتقوم بجميع مهامها المنوطة بها ، ومن مقاصد الشريعة الإسلامية ..حفظ المشاعر البشرية وإنفاقها في المنافع .. و في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين الذكر و الأنثى ، إنما يقصد إشاعة السلم .. والطمأنينة .. و إحقاق الحقوق .. و آداء الواجبات ..

الإسلام ينظم علاقة الرجل بالمرأة :

العاقل ، المتأمل في التنظيم المحكم الذي صاغه الإسلام للحياة الاجتماعية المسلمة ، يقف عند قناعات تؤسس قواعد المعاملة الحسنة التي لا يؤذي فيها بشر ، بصيانة الحقوق ، وإقامة العدل ...

فالعلاقة بين الرجل والمرأة تقوم على أساس حفظ الكرامة ، وصيانة الشرف ، وحماية الحرمة . فهي تتألق إلى مستوى طهارة أنيقة سامية ، وخلق رفيع فاضل ، وعفة راقية دائمة ، لتنتهي إلى الصفاء ...

وهي تمنع أسباب الفساد الخلقي ، وتمنع ألوان الانحرافات .. بل وتدعو إلى اتقاء مجرد الشبهات ..

فالمرأة تتحجب . أثناء خروجها . لتصون كرامتها وكرامة أهلها ، فلا تثير ضدهم الأقاويل ، ولا تحيطهم بالباطل ، وهي تستر إذن عورتها لتجنب الرجل الفتنة والوقوع فيها ، وهي تفرض بحجابها وقارها وحشمتها ، فلا يطمع فيها طامع ..

وهي كذلك تحتجب . داخل بيتها . ولا تخرج إلا لضرورة من ضروريات الحياة .. شأنها شأن الرجل ، تقصد حاجتها في مشيها ، وتغض طرفها ، فلا تبادل نظراتها أحدا ،وهي مثله كذلك تتجنب ألوان الخلوة ، لتصد الأبواب أمام الشيطان ..واتصالها بالرجل لا يكون إلا في حدود المصلحة الملحة كالطب ، والعمل ، والتعلم ، وغيرها مما يباح لها ... كالعمل ...

لهذا الغرض قال حافظ إبراهيم ، وهو يدافع على حرية المرأة في قصيدته :

أَنَا لاَ أَقُوْلُ دَعُوا النِّسَاءَ سَوَافِراً يَتَجَوَّلْنَ بَيْنَ الرِّجَالِ فِي الأَسْوَاقِ

إن هذا التنظيم الاجتماعي العام لعلاقة الرجل بالمرأة ، الذي يمنع لقاء طرف بآخر في غير حاجة ومصلحة ،يهدف إلى منع كشف العورات والعيوب ،

ويصد الأهواء والرغبات ، فيتولد الشوق والحنين والتوق إلى الطرف الآخر ، ويعظم في نظره ..

فإذا ما دخل طرفان عش الزوجية الذهبي ، اكتفى كلاهما بالأخر ، وقصر طرفه عليه ، وأفرغ كل عواطفه فيه ، لتسود الرحمة والمودة ، ويتحقق السكن النفسي الذي لا تتم سعادة زوجية بدونه..فيصبح بعد هذا كله من حق أحد الطرفين أن يؤرق،ويذوب في حنين ووله إذا غاب عنه شقه الأخر ..

الحياء من الحق :

الإنسان في صراع بين الفضيلة والرذيلة ، وتبقى الغلبة لأحدهما نسبية مهما بلغ اجتهاده .. مثل الخير والشر .. أو الإفراط والتفريط ..

من هذين النقيضين،يدرج في مشاعر الشخص عنصري الخجل والخلاعة ..

فالخلاعة تأتي في الحد الأقصى المكرس للجهر بمختلف المعاصي التي يمجها الذوق السليم ، ويمقتها الضمير ، حينما يتجاوز الفرد الخط الأحمر الذي سطرته معايير تلك القيم الاجتماعية والخلقية ، فلا يجب مجرد الوقوف عليه، لا قولا ، ولا سلوكا..وإذا حدث التجاوز فالمرء خليع لأنه خرج عن مألوف القيم التي تقيس بها المجتمعات استقامتها وتوازنها، فتحقق بها وجهتها وأمنها واستقرارها..فالخلاعة إذن رذيلة..وإذا خرق المرء ـ ذكرا كان أم أنثى ـ هذه الممنوعات المهجورة،فإن المجتمع ينبذ هذا الفرد ويهجره ويخلعه فهو خليع ، لاستهتاره بالقيم ..

أما الخجل فيقف في الحد الأقصى النقيض للخلاعة ، والخجول يضبط نفسه إلى درجة الخوف الكبير من ظهور أي عيب فيه ، وينطوي على نفسه ، فتقل حركته ، ويضمحل مجال حريته ، ويُفْرِطُ في الانكماش إلى درجة فقدان المناعة في حماية نفسه وصون حاجته.. فلا يدافع عن نفسه إذا هضمت حقوقه،

وهذه أيضا رذيلة .. ذلك أن الإنسان صار بليدا ، يفقد وقاره حينما يتنازل عن حقوقه المشروعة ..

والإسلام دين الوسطية والاعتدال .. فهو يرفض الإنسان الخليع ، المزعج للآخرين ، وكذلك يرفض الخجول البليد ..

بل هو يمجد الحياء ، هذه الخصلة التي تقف في الخط الوسط بين الخلاعة والخجل . فالحياء يعني لا خجل ، ولا خلاعة .. أي لا تجاوز للقيم ، ولا صمت على هضم الحقوق المشروعة ..

العاقل يدرك هنا أن الإسلام . فعلا . هو دين الحق ، حيث ضمن المعايير الحقيقية التي تحقق رفاهية الفرد والمجتمع ، ويحفظ سلامته من التذبذب والاضطراب ..

والإسلام حين التنظير للعلاقة بين جنسين ، وضع معايير حقة ، وسن معاملات نبيلة ، تحقق سلامة الطرفين من كل خلل ، وبالتالي عالج كل الأمراض النفسية والاجتماعية التي تحط المجتمعات ...

فالمجتمع الإسلامي سليم من كل ألوان التخلف ..والعقل الراشد لا يرى دينا أو فكرا وضعيا في العالم ، على مرور العصور ، سن قوانين التقدم والقوة الاجتماعية إلا الإسلام .. في جميع مجالات الحياة وعناصرها .. ومن هذه القوانين

غض البصر :

إن الغيرة الشديدة على الأنثى التي كرستها البيئة الجاهلية خوفا من العار والفضيحة عند الأولياء ،والرغبة في الحفاظ على المحبوب الثمين للنفس وحدها دون سواها عند العشاق .. هذه الغيرة صقلها الإسلام ، الذي جاء ليتمم مكارم الأخلاق ، وهذبها ونظمها ، وأعطاها طابع الرسمية ..

فالمسلم مأمور باستخدام عقله في تطبيق الأوامر والنواهي عن قناعة ، ومأمور بمجاهدة نفسه ، أي الاجتهاد في تغليب العقل على الأهواء النفسية لأنها سبب الانزلاق في ارتكاب المعاصي ..

سواء أكان ذكراً أم أنثى ، عليه بغض طرفه ، فالنظرة الأولى إليه أما الثانية فهي عليه ، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .فالمطلوب صدق النية الخالصة لله تعالى في حفظ المؤمن لكرامته وكرامة المجتمع بأسره ..

إن الأسرة في المجتمع الإسلامي تقاس بمقياس تربية الأولاد خاصة ..

ستر العورة :

إن الاستقامة في السير ، وقصد الحاجة ، تشريع رباني للجميع ، فإذا كان الذكر مطالب بلبس اللباس المحترم الذي لا يثير المشاعر ، ولا يستهتر بالقيم .. فالأنثى مطالبة بارتداء الحجاب الذي تتوفر فيه شروط ستر العورة .. فالمجتمع الإسلامي ملتزم ، عادل في لباسه ، لا يفتن الناس بالمظاهر ..

الاختلاط :

لا أعتقد أن أساتذتنا ، علماء الإسلام ، في عصرنا الحديث ، قد منعوا الاختلاط نهائيا بين الطرفين، ولكن تركه للضرورة والحاجة..وفقا لما شرع من دراسة أو عمل المرأة عند حاجتها المادية، كانعدام الولي ، أو عجز الزوج على تغطية كل النفقات..والاختيار دائما بقي لاتفاق الزوجين ، لا غيرهما..فالحاجة الشخصية الناتجة عن آثار ظروف اقتصادية ، ووفقا لما شرع للمرأة عند زيارات المؤسسات المتعددة الاختصاص ومصدر الحاجة كالعيادة والمدرسة .. فإن المرأة في حالات كثيرة ستقابل رجالا أجانب عنها ، لكن هذه المقابلات ملتزمة بضوابط شرعية ، تقف عند حدود المصلحة دون تجاوزها إلى حالات أخرى ..

هذا الاختلاط الملتزم ، بالضوابط الشرعية يشع الاحترام بين الجنسين.

الخلوة :

اتقاء للشبهات ، وتجنبا لوساوس الشيطان ، لا يجوز للرجل أن يخلو بالمرأة ، فالخلوة من المحرمات القطعية ، التي لا يجوز في كل الأحوال ،وهذا ما يحقق طهارة المرأة وعفتها والرجل كذلك ، سواء بسواء..

إن المتدبر لهذه العناصر السابقة ينتهي إلى أن الإسلام هو الرسالة الحضارية الوحيدة التي حافظت على طهارة المشاعر ، ونبل الأخلاق ، وحسن المعاملة ، وتنظيم العلاقة .. حيث لا أذى ، ولا مشقة ، ولا إحراج ،ولا شبهات ، وبالتالي فالإحساس نظيف ، والعقل سليم ، والقصد في العلاقات لابد أن يكون شريفا ..

التوق إلى الآخر :

إن هذه الحدود الفاصلة بين الرجل والمرأة ، والتي تنظم العلاقة بينهما ، وتجعلها منضبطة ، ومحصورة في معاملة ذات قوانين اجتماعية ملتزمة .. تخدم كلا الطرفين من لذة هي فطرة بشرية .. هذا المنع والحفاظ هو الذي يدفع الطرفين إلى الحنين ، والله تعالى بمشيئته شاء أن يفطر كلا الجنسين على الحنين إلى الآخر. هذا الحنين الناتج عن الطهارة والحرمان ،له دوافع وأسباب تفسرها العناصر السابقة ..المنظمة للعلاقة في المعاملة بين الطرفين ..

يحرم كلاهما من إشباع دوافع الشوق والحنين ، ولا يجد إلا طريقا يقربه من الآخر ، ولا يجد الوصال إلا في الزواج ..

قد يهتدي القارئ الكريم ، الآن ، إلى جمال النفس المؤمنة ، السائرة في طريق المنهاج المحمدي السليم ..

شخصيات في مفترق الطرق :

مدخل :

حسب تربية الفرد وهمته ، وما ارتكزت عليه شخصيته من منطلقات تؤسس الاتجاه في الحياة ، وترسم الأهداف والنهايات ..

فتنة الحب إما أن تكون حجة للإنسان أو عليه ..إما أن ينجح في اجتياز هذا الامتحان حينما يحسن تصريفه،أو يفشل إذا أساء تدبير تفاصيله ، ورسم نتائجه ..

وتتواصل الأمثلة الحية من تاريخ حياة الشخصية المسلمة المتقلبة الأحوال ..

مرة يصنع الحب الفاشل بطلا عظيما حتى صار قدوة للأجيال ..

مرة يجعل الحب الناجح المكلل بالزواج ، من صاحبه موضع سخرية ونقمة ، حتى وسم الدارسون سيرته " بالمأساة " .

وإذا بما كان لذة في الدنيا ينتهي بألم فضيع ، وإذا بما صار ألما ينتهي إلى لذة أبدية .. وإذا بالسعادة الظاهرة في بدايتها ، شقاء في باطنها عند نهايتها ، والعكس ...

تبدو المرأة في حياة الرجل روحا مكملا لروحه التائهة ، المترصدة لمستقرها .. ومنعشا لوجوده ، ومهدئا لشطحات نفسه المضطربة ، ومسكنا جامعا لانفعالاته الباطنة المضطرمة بالأحاسيس المبعثرة ..

وبقدر ما هي المرأة سكن نفسي حينما يتحكم العقل في قيادة النفس البشرية ، ويدبر أمورها بميزان الاعتدال وحسن التقدير ، بقدر ما هي فتنة حينما يطلق العنان لهذه النفس فَتَعْمَهُ في نشوة أهوائها ، وكلما كبرت هذه الأهواء ، كلما زادت الآمال والأحلام .. حتى يصعب وجود كابح يكبح جماحها عن غوايتها..

والنفس الهائمة في أهوائها،تدفع القيم دفعا بعيدا عنها ،فتقتل الضمير .
وتكره أداء الواجب،وتتبرم على أداء واجب المسؤولية،فتسلب إرادة العقل ..
والإنسان إذا فقد العقل ، فقد مبررات وجوده في الكون ، وانحرف عن مهام الرسالة التي ابتلي في الأرض بأدائها ..

والحب بصفة عامة ، طبيعة بشرية ، يخص الرجل كما يعني المرأة على السواء ، لا أحد يتميز فيه عن الطرف الأخر بشيء .

حب السعادة :

الإسلام بأحكامه الشرعية الدقيقة ، ووجهته العامة المستقيمة ، ومبادئه الشاملة ، يوحد صفوف معتنقيه ، ويجمع شتاتهم ، وينظم وتيرة سير حياتهم في نسق واحد ، بحيث تسود الثقة بينهم ، وينتشر الوئام ،وتعم الأخوة ، ويحفها السلام ، وتملأ النفوس طمأنينة ، وتكسوها السكينة .وينعم الجميع بالاحترام المتبادل المشحون بنعمة الحياء ، حينما يعرف كل طرف ما له من حقوق على الأخر ، وما عليه من واجبات ناحيتهم ، فيؤديها كاملة غير منقوصة ، ويأخذ حقوقه كذلك غير مشبوهة بطريقة تحفظ الكرامة ، وتدعم فيه روح الإنسانية ، وتقويها بهذه العلاقة التي تتساوى فيها كفتا ميزان العدل ، ويدير شؤونها العقل مانعا لهوى النفس ، ورغبتها ، من الشطط . حيث لا احتكار ، ولا أذى ، ولا إجحاف .

إنه الدين الذي يوحد المشاعر ، ويثري الأحاسيس ، ويغذي الفكر ، ذلك أن كل المعاملات الناتجة عن السلوكات الموحدة ،المنتظمة في خيط واحد ، هي وسيلة لغاية واحدة هي : عبادة الله في النهاية . فالكل يعمل مع الله ،لا مع البشر .. وهذا منتهى الصدق .

وهذا ما ينطبق تماما مع الزوجين،إذ يكفي أن يختار كل طرف الآخر ، آخذا بعين الاعتبار هذه الأولوية ، أولوية فهم الدين . وعلى أساس هذه المبادئ المشتركة ، تدوم العلاقة الزوجية التي هي وسيلة عبادة .

وفي مثل هذه الحالات الناتجة عن الفهم الحقيقي للمبادئ ، يقل الخلاف أو ينعدم ، بتحقيق هذا الاستقرار .. ويتحقق السكن النفسي الذي أكده القرآن وجعله آية عظيمة ...

إن تطبيق الطرفين لهذه المبادئ والمفاهيم كاملة ، هو دعم وإثراء ، وتنمية للحب ، وإهمالها أو تنقيصها ، ينقص الحب ويزيد الكراهية ،لتنافر بعض القيم .

وهذا هو سر مفتاح جمال الروح..تطبيق القيم النبيلة التي تحفظ دوام المعاشرة .

والشعراء الذين تغزلوا بزوجاتهم ،في الأدب العربي، عبر التاريخ قديما وحديثا ، غير قليلين .. لا تخلو فترة زمنية من وجودهم ..وأولئك الذين نعوا زوجاتهم بعد وفاتهن ، وانهمرت دموعهم مِدْرَاراً ، وتَكَدَّرَ صفو حياتهم ، وبرى الألم أجسادهم ، بعد فقدانهن كثيرون ..

نكتفي بذكر نماذج تفي الغرض في المقام ، نتعرض من خلالهم ، لاستقامة سلوكاتهم بخضوعهم التام للمنهج الرباني الذي فهموه فهما عميقا دقيقا ، وترجموه في حركاتهم أثناء تفاعلهم مع الأحداث العامة والخاصة في الحياة ، مقتدين بسنة الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . ليسعدوا دنيا وآخرة..

الحسين . رضي الله عنه . :

هذا الحفيد البار ، الذي تربى في حضن الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . ، وقد أفاض الرواة في ذكر حب الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . له ولأخيه الحسن . رضي الله عنهما . حبا جما ، حتى أنه جزم بأنهما خير شباب الجنة . وهذا القول يكون ترجمان سلوكهما في حياتهما ...

هذا البطل المسلم العظيم ، جعل حياته تدور حيث يدور الإسلام .. وحصر أعماله كلها في صميم فضاء الإسلام ، ووضع حبه في إطاره الصحيح الذي يريده الله لخلقه . إنه الشاب الذي ترعرع في حضن رسالة الإسلام ، ونهل منذ صغره من ينابيعها الفياضة التي لا ينضب مَعِينُها ، وعلم أن المسلم مأمور بغض الطرف عن الأجنبيات ، وأنه مطالب باختيار الزوجة وفق معايير إسلامية تحقق السكن النفسي ، الزوجة التي يقصر نظرها ، وأحاسيسها عليه ، ويظهر سلوكه كدليل فعلي ، في قوله :

لَعَمْرُكَ إِنَّنِي لأُحِــبُّ دَارًا تَحَلُ بِهَا سَكِيْنَةُ وَالرَّبَابُ

أُحِبُّهُمَا وَ أَبْذُلُ فَوْقَ جَهْدِي وَلَيْسَ لِعَاذِلٍ عِنْدِيْ عِتَابُ

وَلَسْتُ لَهُمْ وَإِنْ عَذَلُوا مُطِيْعاً حَيَاتِي أَوْ يُغَيِّبُنِي التُّرَابُ

يبدو تنفيذ الحديث الشريف : "خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي" . جليا واضح الأثر ، يرسم معالم الحياة الأسرية لحفيد الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . فقد جعل حبه وسيلة لغاية هي تعمير الأرض بعبادة الله ، وذلك بتنفيذ أحكام الأمانة الربانية التي اختار الإنسان تحملها . فهو يحيط أسرته بالعناية التامة ، ويقصر نظره عليها . فحب البنت "سكينة" التي بها يحفظ

العاذل : اللائم

نسله ، يكبر مع الحب الدائم للزوجة "رباب" التي لا يرضى عنها بديلا ، ولا يتطلع إليه أبدا .ولا يرى نجمنا وقُدْوَتُنَا عيبا في التغزل بحب الزوجة ، بل يتجاوزه إلى رد كلام العاذل ويتغاضى ، بل وينبري للدفاع عن حبه ،وفوق ذلك يعلن عصيانه لهؤلاء العذل ، ويقرر أن وجود البنت في حياته وأمها ، يجعلهما يشكلان فضاء حياته ، ويغذيان وجوده ، ويقويانه على الحركة والاستمرار في أداء مهامه ، وهو المجاهد الكبير في كل أنواع الجهاد ومراتبه . ويجزم أن الموت أفضل من فقدان الحبيب أو هجرانه ، بل بهذه الكيفية في الحب يعيش أو لا يعيش .

ولربما انشغاله بحياة الجهاد ، وعظمة دوره السياسي والاجتماعي في حياة المسلمين ، قلل وقت الراحة مع الأسرة ، والتمتع بالأنس والألفة .

هذا النموذج رد كاف على من يعتقد أن الحب يموت بعد الزواج أو ينقص أو يتحول ،بل العكس أن هذا الزواج إن تم باختيار الطرفين لبعضهما ، وعلم كلا الطرفين ما عليه من واجبات وما له من حقوق ، ولزم حدوده ، ووقف عند بداية حرية الطرف الآخر . وصدقت النفس منذ البداية وأخلصت ووفت ، وتبادل الطرفان المودة والرحمة ، وجعلاه كلاهما وسيلة والله غاية ، واجتهدا في تحصيل هذه الغاية ، فمن أين يأتي الخلاف ؟ وكيف ينقص هذا الحب ولا يزيد ؟ إن أسباب تردي عاطفة الحب هنا انعدمت ، ودوافع الزيادة فيه والإثراء توافرت .. والغاية عظيمة .. " أو رد سبط بن الجوزي في "تذكرة خواص الأمة" هذه الأبيات التي أنشدها الحسين في زوجته الرباب بنت امرؤ القيس التي رفضت الزواج من غيره من بعده وقالت : "ما كنت لأتخذ من بعد الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . " وأنها بقيت بعده لم يظلها سقف بيت وماتت كمدا وأسفا عليه في المدينة ". [1]

---

(1) غصّن الرسول : الحسين بن علي ،تقديم د.محمد بن فتح الله بدران.بقلم فؤاد علي رضا. مؤسسة المعارف بيروت ص 17

الأمير عبد القادر :

عاش في بيئة تحافظ على المبادئ الإسلامية السمحة ، وترعرع في محيط اعتاد أهله على كرم الأخلاق ، ونبل المشاعر ، ونهل من رؤية اجتماعية تريد الإنسان طاهرا ، عفيفا ، نظيف الثوب ، نقي الباطن ، صافي السريرة .. أي جهر بمعصية تعتبره الجماعة خرقا لقوانينها..وأي انحراف في السلوك يحط من منزلة صاحبه ،وينقش في الذاكرة الجماعية ، ويحفظه التاريخ في سيرة حياته .. ومن هنا كان الانضباط التام هو المسلك الوحيد الحافظ لإنسانية الإنسان ..

بقدر ما يريد المجتمع الفرد متواضعا ، مؤدبا ، وقورا ، بقدر ما يريده شجاعا ، قويا ، فطنا ، يحفظ الكرامة ، ويذود عنها بسلاحه عند الحاجة ، ويموت دونها .. إنها بيئة القوة في منتهاها ، في حدود إمكانيات الجماعة ، تلك القوة المادية والمعنوية . وبيئة الرقة في أقصى درجاتها عندما تدعو الظروف ، وتسنح الفرص ، ويدعو المقام إليها ..

سواءا أختار زوجته أم وجهه إليها ذويه ، ونفس الأمر عند الزوجة . فقد يتعاطى معها الود والكرم في المعاملة . إذ يبدو الأمير ، داخل بيئته ، ومن خلال أشعاره ، ولا سيما قصيدته الشهيرة الغراء ،أنه اختار زوجته وأحبها . وأنها حققت له كما حقق لها كمال السكن النفسي الذي هو غاية الزواج ، وأداة قوية دافعة لتحقيق معالم الغاية الكبرى .. إنه يرتاح لرؤيتها ، ويهدأ أثناء تواجدها أمام عينه ، ويحضر بكل قواه الوجدانية أمامها ، فهي تكمله وهو يكملها ، لذا تجده عند مفارقتها مقروح العين ، تائه اللب ، مكلوم الفؤاد ...

نستقرئ ذلك من خلال عرض بعض أبياته التي يعري فيها بُعْدَهُ عنها،مكنون صدره ، وشدة لوعته :

أَقُوْلُ لِمَحْبُوبٍ تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِي عَلِيْلاً بِأَوْجَاعِ الفِرَاقِ وَ بِالْبُعْدِ

أَمَا أَنْتَ حَقًّا ، لَوْ رَأَيْتَ صَبَابَتِيْ لَهَانَ عَلَيْكَ الأَمْرُ مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ

وَ إِنِّي . وَحَقِّ اللهِ . دَائِمُ لَــوْعَةٍ وَنَارُ ٱلجَوَى ،بَيْنَ ٱلجَوَانِحِ فِي وَقْدِ

تبدو الثقافة الإسلامية صارخة الوجود في نفسية الشاعر ، حاضرة في فكره وإحساسه ، فهو لا يبدو قد التفت إلى غير حليلته ، وهذا يترجم حسن النية في قصر النظر على زوجته ، وصدق المشاعر في الاكتفاء بها ... يغض البصر عن غيرها ، لأنها ملأت كيانه ، وما تركت شيئا .. وهذه الرؤية الموفقة في الزواج هي التي تعزز في أعماقه نية اعتبار الزواج وسيلة لتحقيق غاية العبادة والتي منتهاها حب الله . وهي تدفعه إلى رباطة الجأش التي نفت عنه البَلاَدَةَ .

وحينما يسرد مذكرات دفاتر أيامه التي سقطت أوراقها من حياته ، يعلن موقفه من الوجود ، وعلاقته بالحب والواجب ، فهو لم يرتكن إلى زاوية من زوايا غرفته مفتونا بزوجته ، متمتعا بالجلوس إلى جانبها ..

ولكن مع صلابته وعزمه وعلو همته ، يعلن موقفه من الحب والحرب ، فهو المؤمن المبتلى ، وقد ابتلاه الله مرتين : مرة بممارسة جميع الواجبات المكونة لعناصر أداء رسالة العبادة في الأرض ، بكل أبعادها وتفاصيلها العملية . ومرة ابتلى أميرنا بالجهاد في سبيل الله ، ليبتعد سنوات طويلة ، وأياما عن المحبوب ، ولا بد له من مكابدة الصبر ، ومصارعة الصبابة :

وَمِنْ عَجَــبٍ ، صَبْرِيْ بِكُلِّ كَرِيْهَةٍ وَ حَمْلِيْ أَثْقَالاً ، تَجِلُّ عَنِ ٱلْعَـدّ
وَلَسْتُ أَهَابُ البِيْضَ ، كَلاَّ ، وَلاَ ٱلْقَنَا بِيَوْمٍ تَصِيْرُ ٱلْهَامُ لِلْبِيْضِ كَالْغِمْـدِ
وَلاَ هَالَنِيْ ،زَحْفُ الصُّفُوفِ ،وَصَوْتُهَا بِيَوْمٍ يَشِيْبُ الطِّفْلُ فِيْهِ مَعَ ٱلْمُـرْدِ
وَقَدْ هَالَنِيْ ، بَلْ قَدْ أَفَاضَ مَدَامِعِيْ وَ أَضْنَى فُؤَادِي بَلْ تَعَدَّى عَنِ ٱلْحَدَّ
فِرَاقُ الَّذِي أَهْــوَاهُ ، كَهْلاً وَيَافِعًا وَقَلْبِي خَلِيٌّ مِنْ سُعَـادٍ وَمِنْ هِنْدِ

ونستشف هنا عبرة للقاعدة الإسلامية العامة التي يضع فيها الله تعالى الإنسان في ميزان الاختيار بين حب البشر والموجودات في حياته كغاية فتكون الدنيا جنته، وبين حب الله..أيهما يختار الإنسان كهدف، يترتب عنه الجزاء.. إما حب الله هو الغاية في الوجود باعتباره الواجد ،ويترتب عنه نعيم الجنة في الآخرة

، أو حب غير الله وتترتب عنه نقمة النار في الآخرة .. لندرك أن الحب رزق في الأرض ، وابتلاء من الله في كل أحواله ... والإنسان مطالب بالصبر على الابتلاءات ..

يبدو الأمير الشاعر مستسلما في حبه،وفي كل أحوال عمره لقضاء الله ، لا يزعجه شيء ، سوى وَلَهُ ٱلفِرَاقِ ، ونار الاشتياق ، فهو يتمنى اللقاء ، ويبث الآهات والآلام من جراء هذا البعد ، ويطلب ذلك من الله مسبب الأسباب :

أَلاَ هَلْ يَجُوْدُ ٱلدَّهْرُ بَعْدَ فِرَاقِنَا فَيَجْمَعُنَا ، وَ ٱلدَّهْرُ يَجْرِي إِلى الضَّدَّ

وَأَشْكُوكَ مَا قَدْ نِلْتُ مِنْ أَلمٍ وَمَا تَحَمَّلَهُ ضَــعْفِي وَ عَالجَهُ جَهْدِي

لِكَيْ تَعْلَمِيْ أُمَّ البَنِيْنَ . بِأَنَّــهُ فِرَاقُكِ نَارٌ ، وَ اقْتِرَابُكِ مِنْ خُلْــدِ

ولعل دافع حب الزوجة حقيقة واقعية ، صادقة ، نظيفة ، تمثلها تلك الخصال الحميدة في المرأة . فهي مستودع الأسرار ، تحفظ الأمانة ولا تخونها ، تصون العرض والمال ، وتعمل جاهدة على تقوية مركزه الاجتماعي ، تعرف فيه ما يحب فتفعله ، وما يكره فتجتنبه . يحب فيها الرجل كما تحب فيه المعاملة الحسنة التي توثق الصلة وتدعم الرابطة الزوجية فتقويها.يستجيب كلاهما لجميع الطلبات ، ويلبي جميع الرغبات ،يوفران لبعضهما الراحة ،والطمأنينة تسود . والروح الطيبة بهذا المستوى هي التي تدعم السكن النفسي وتحققه . تعمل المرأة على تزكية وتحسين سمعة الرجل ، وتقوية مكانته ، ورفع رتبته ، وذلك برعاية حق الجار ، وحق الأهل والأقارب .

وحب الشاعر . أكيد . نتيجة ترتبت عن مثل هذه الأفعال التي كانت فطرة إسلامية ، ووسيلة لإرضاء الطرف الآخر ،كلا الطرفين سوي ، مستقيم في شخصه ، وفي هذا التراضي ، رضا الله ورسوله

.

هذه هي المرأة الرمز التي تدفع الرجل إلى العمل والإنتاج خارج البيت ، داخل المجتمع ، وبهذا تساعده على بذل الجهود المضنية في توفير جميع حاجياتها ، وبهذا تساهم في دفع عجلة التطور الاجتماعي..

سيد قطب :

هتف قلبه للسمراء الصغيرة .كما يصفها . التي كانت تتردد على بيته ، وهو مازال صغيرا .. تبادلا النظرات النافذة في الروح ، وبدأت قليلا ، قليلا ، فتنة العين تنعكس على الوجدان ليشب عنصر الإعجاب في بادئ الأمر .. وما يصحبه من آمال وأحلام .. ويبدأ القلب تدريجيا ، ينبض بقطرات الحب الأولى .. ويشرع الإحساس شيئا ، فشيئا ، يؤكد له أنه هو نفسه المقصود بهذه الزيارات المتكررة منها للأقارب .

تمر الأيام ومشاعر الشاب تنساب وراء نداء الفطرة ، لتغرق في الاستجابة للذة الحب . يتعمق الهوى في باطنه ، ويتغلغل لتسري جذابات نشوة الفرحة في شرايين قلبه .. وفجأة يجد نفسه قد هام في غمرة هذه اللذة ، وأنه صار مكبلا بقيود المليحة التي فتنته بجمالها الذي وافق ذوقه السليم .. وأخلاقها المكينة ، الأصيلة التي صاحبت حركاتها وسكونها ، فهي الحيية المحتشمة .. وهي المرأة الواعدة بالسكينة .. فقد ملأت حياته ، وسيطرت على خلجات نفسه وعوالجها ، وشعر أنه هو ، هو وحده ، المعني بها.. حيث ميزها عن جميع معارفه ، ووهبها في نفسه المرتبة الخاصة اللائقة بمكانتها في قلبه المتوهج بشعاع حبها العميق ..

وهكذا تتكرر مواقف الزيارات ، ويعتاد على هذه الرؤية التي يقف عند حدودها ،ويكتفي بها.ويشغف لها ويشتاق ،وينتظر رؤيتها بفارغ صبر ، لينغمس - مع مرور الأيام - في ألفة يصعب بعدها الفراق ولا يتصور صاحبها أبدا فقدانا ، ولا يخطر له على بال .. إنّه الشاب وما يصحبه من تفكير في لذة حاضرة والاكتفاء بها ..

وهو شاب يافع ، لم يجرب الحياة بعد . ولا يعرف ما يخفيه له القدر ، بل عاش ظاهرته الغرامية على فطرة ، وببساطة تامة ، وسذاجة متناهية ، وهو أيضا لا يعرف تقلبات الزمن ، ورعشات الظروف ، وحتمية المصالح ... يكتفي بالنظر

ويقتصر عليه ، لكنه يحلم بها زوجة في المستقبل . ولولا فكرة الزواج وما يصحبها من تصور مثالي لمعاشرة دائمة سعيدة ، ما كان ليغرق في الحب ، خاصة وقد رأى الكبار من الشباب يتزوجون ، وهو يعاشرهم في قريته الصغيرة ، التي تحافظ على العادات والتقاليد ، وتعتبر احتجاب المرأة عن الرجل من السنة الشريفة ، وتمنع الاختلاط ، ولا تسمح به إلا في الظروف القاهرة ...

وهو الشاب الذي حفظ القرآن في صغره ، ولا تسمح له تربيته التي ركزت له على ضرورة ديمومة الطهارة ، وحتمية حفظ الكبرياء الرجولي ، والالتزام بنبل المعاملة .. لا تسمح له هذه التربية بتجاوز النظر إلى ما بعده ، بل كل رغباته تتحقق فيه ..

وهو الذي يدرك أن غض البصر عن المرأة من الواجبات ، وهو يحفظ آياته.. ولم يلتفت إلى سواها لأنه وضع مشروع الزواج في طريق الحلم ، وبقي تحققه إلى أن يحين أوانه ، حينما يحقق الباءة .

انتقل إلى القاهرة،على عادة أبناء قريته النجباء ليلتحق بدار المعلمين . ينقطع فترات طويلة عن القرية .. ثم يعود .. وهو يعتقد أن هذه الفتاة هي نصيبه في الدنيا ،وسبب فوزه في الآخرة بنعيم الجنة لأهمية السكن النفسي في حياة المؤمن ، وقد ظن أن أهله وأهل الفتاة على علم برغبته في الفتاة ، التي ساقتها له الأقدار منذ الصغر لينعم بحبها ، ويبني معها الأسرة الفاضلة المنشودة ، وأنه الشاب الذي لا يمكن أن يبلغ غيره مستواه وينوب عنه ، فهو سيد الشباب في قريته ، من عائلة محترمة ..وربما تلقى وعودا بذلك .. بل خَطِبَهَا كما ذكر..

لقد قضى أيام دراسته في القاهرة ، يقطر وجدا ، ويتسربل ولها ، متعلقا بصورة يعتقد في نفسه أنها كملت نقائص وجوده ، وقد ظل يحسب الأوقات التي تمر ثقيلة ، جاثمة على كاهله المثقل بآهات الحب ... لكن ثمة أيام تعده بحب كبير ليس له ترجمان في عقيدة بطلنا سوى الزواج ، وتتسع الآمال ، ويشتاق

إلى الزمن القادم الجميل المنتظر ، وتقوى عزيمته على المثابرة والاجتهاد في طلب العلم .

وبعد فترة ، يدخل القرية فرحا بشهادته العلمية ، مبتهجا بعودته إلى من يحب من أهل وأقارب وحبيبة تنتظر .. وأول ما يسأل ، يُبَلَّغُ أن الفتاة تزوجت بآخر من قرية نائية مجاورة .. فتهزه الصدمة من أعماقه ، وينقلب حاله ، ويتسلل إلى باطنه الشعور بالإخفاق وإهدار كرامته ، واعتراض مخططه ، ويهتز كيانه الهزة العنيفة التي لم يبق في أغواره شيئا من الطمأنينة ..

ولئن كان بيتا أبي تمام لا يصدقان في كل الأحوال ، فهما هنا ينطبقان تمام الإنطباق ، ويبلغان كمال الموافقة مع سيد الشجاع المعطاء :

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ ٱلْهَوَى مَا ٱلْحُبُّ إِلاَّ لِلْحَبِيْبِ الأَوَّلِ

كَمْ مِنْ مَنْزِلٍ فِي الأَرْضِ يَأْلَفُهُ ٱلْفَتَى وَحَنِيْنُهُ أَبَدًا لأَوَّلِ مَنْـزِلِ

ويقرر العزلة عن الجميع ،ليراجع حساباته ويفكر في أمره ،ريثما ينجلي ضباب الصدمة،ويعود إلى حاله أو تعود بعض حالته إليه،وجالت بذهنه أسئلة، في شهور العزلة ،وضعت على بساط الحيرة في ذهنه ،في الحياة ،في المجتمع ...

فلو بقي حبه مكبوتا في صدره طيلة هذه السنوات ، ولم يقم بالخطوات التمهيدية لموضوع الخطبة، لينال الرضا والقبول لأعاد اللائمة على نفسه ، واعتبرها مقصرة في حقه ..وفي هذه الحال ، ينتابه الندم ، وهذا لم يحدث ..

لو وجد عائقا حقيقيا من عوائق الدنيا يمنعه من تحقيق حلمه الذي كان شبه حقيقة لا يمنع تحقيقها إلا الوقت ، لغضب على الدنيا وتشاءم في حياته ، أو لرضي بنصيبه واستسلم..وهو الذي يدرك تمام الإدراك الحديث الشريف :

"إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِيْنَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ،إِلاَ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الأَرْضِ وَفَسَاداً كَبِيْراً "

ولكنه في علمه أيضا ، أنه لا يجوز العبث بالمشاعر البشرية ، خاصة في هذا الموضع لما يسببه من قهر وسخط ونقمة ، ولا سيما عند أمثال سيد ..

ويكفي - كما يفهم هو الإسلام - أن يتلقى الوعود الأولى مادام الرضا تحقق بين الطرفين ليبلغ مبتغاه.ولكنه ربما العادات والتقاليد التي انزاحت،مع مرور الزمن ، بفعل الجهل ،وزوال العلم بالإسلام تدريجيا من ذهنيات المسلمين هو السبب .. ولكن هذا الجهل الذي وقع فيه الناس ضحية ، المحرك الرئيسي لأسبابه أولئك الذين ظلوا يصارعون المسلمين وينغصون عليهم حياتهم ويبثونهم أسباب الفقر ، ويشوهون دينهم بالخرافات والأباطيل ، فالانتقام للحب الضائع سيكون إعلان حرب شعواء على الجهل ومن تسبب فيه . إنها غمامة الكفر الغاشية ولا شيء سواها ، هذا الضلال الذي يمثله الاستدمار وحملاته المتتالية الشرسة ..

وتصرخ العظمة من أعماق صاحبنا مدوية ، لتملأ جميع أرجاء الكرة الأرضية ، بمؤلفات خالدة ، عظيمة في مضامينها ، نظيفة في مبتغاها ، يشهد على عظمتها ، وعبقرية صاحبها كل من قرأها .

ولكن ما الذي حول الفشل في الحب إلى نجاح في الدعوة ؟

إنه يقين الرضا بالقضاء والقدر ، المحفوف بخشية الله ، وتفويض الأمور إليه ، وعدم الركون إلى أسباب الكسل ، ومقاومتها بالصبر والاستغفار الملازمين له ، وقد كان دافع التأليف ترجماناً صادقاً .. و كانت محاولة تنظيم صفوف المسلمين،دون استثناء مطيته في ذلك . إنه لا يريد أن يقع غيره من المسلمين ضحية لما وقع له .. يجب إذن معالجة الظاهرة من عمقها بنشر الدين بين المسلمين .. فالإسلام بحاجة إلى دعوة وتبشير ..

وهكذا نقل بطل المسلمين ، فشله العاطفي إلى بطولة وعظمة ، حتى اقترن اسمه بالمصلح والمرشد والمربي و رائد الحركة ، وهو على يقين أن الغاية هو الله ، والوسيلة هي حبه ، وهذا الحب يقتضي التضحية وجهاد النفس والاجتهاد في تصحيح ما حُرِّف وَشُوِّه ، وفقد نضارته في الوجود ...

وهكذا انتقل الألم في الدنيا إلى لذة نعيم في الآخرة . إن شاء الله . وكان حبه في الشباب وسيلة لحب الله .

إِنَّ نَفْسًا لَمْ تَعْــرِفِ الْحُبَّ هِيَ نَفْسٌ لَمْ تَـدْرِ مَعْنَاهُ

أَنَا بِالحُبِّ قَدْ عَرَفْتُ نَفْسِيْ وَ بِالحُبِّ قَدْ عَرَفْتُ اللهَ

و إذا كان من عبرة نستقصيها من حادثة سيد العظيم ، فهي الرجوع إلى سادتنا العلماء الذين فضلوا أن تقصر المدة بين الخطبة و الزواج .. و ألاَّ يتقدم الشاب إلا إذا جهز نفسه .. حقق الباءة ..

الحب رزق :

قد تتهيأ الظروف لشخص ما ، ذكرا كان أم أنثى ، وتتاح له الفرص المناسبة ليختار بمحض إرادته وبكل حرية .. وبعد تردد ، وتفكير ، وتمييز عميق ، يجد المرأة التي ستخلو بها الروح ، وتسكن إليها ، وتتعلق بها ..

وقد يقع نظره لأول وهلة على شريكة حياته ، فيطرح أسيرا،مكبلا في أغلال هواها ..

ففي الحالتين يتحقق الأمل، ويبلغ المبتغى..فيتقدم إلى خطبة ويحظى بالقبول ، ويتم الزواج..

سواءا أوقع في هذه الحالة أو تلك،فقد حقق مؤهلات السعادة الأسرية .. إن أحسن التصرف بعد ذلك ، وفقا للقوانين الطبيعية للحياة ..

والناس الذين يتحقق لهم هذا الطموح ، على حالتين متناقضتين :

. إما أن يشكر الله ويحمده،ويزيده هذا التوفيق الذي مني به، عبادة وتقربا من الله تعالى.

. أو يكسبه طغيانا وكبرا وإعجابا بالنفس ، ويعتقد أنه اكتسب القضية بعلمه وفهمه ، وحسن تدبيره ، وماله ومركزه الاجتماعي ، وينطبق حاله على حال قارون حينما سئل عن مصدر ثروته الطائلة ،وكيفية تحصيلها فقال : "إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي " سورة القصص الآية : 78

ولم تسمح له نفسه التائهة ،المتمردة ،الغارقة في الأهواء ،بالالتفات إلى عقله ، والاستفسار عمن هيأ له الظروف ، وذلل الصعوبات ، وحفه بالتوفيق ، لينتهي إلى خالقه ويدرك أن هذا التوفيق في الحب هو نصيبه من بعض رزقه في الدنيا ، وينتهي إلى أنه مبتلى في هذه الدنيا بهذا النصيب ، ليسأل حفظ أم ضيع .. فيزيد حبه لله عن بصيرة ويقين ..

فئة أخرى لا تسمح لها ظروفها،ولا محيطها بالاختيار،أو ترتكب خطيئة الحب قبل الزواج...

ويكون ذلك بسبب جهل الوجهة الإسلامية الصحيحة في الحب ، أو بسبب مادي ، أو بسبب العادات والتقاليد ، أو رغبات الأولياء ...

ففيهم من يستسلم للقضاء والقدر، ويرضى بقسمته في الدنيا حينما يعجز عن المقاومة .

ومنهم من يقضي بقية عمره متحسرا ، متمردا ، شاكيا ، باكيا ، منحرفا عن رسالته في الأرض ، فيخسر الدنيا والآخرة .. ونسي أن الله قادر على منعه نهائيا من الزواج بتسليط أمراض أو ظروف قاهرة .. هذا النوع الضعيف ، قليل التوكل ، غير مدرب على الصبر ، ناقص علم ، غافل عن حقيقة الدنيا ، جاهل بمكائدها وتقلباتها ، وسبب وجوده فيها ..

نفهم من هذه الخواطر البسيطة أن الحب بلاء من الله ، سواء في حالة الفلاح أو حالات الفشل .. دون أن ننسى أن الله جعل الإنسان دائما بين خيارين :خيار حب الله باعتماد العقل في اتباع منهجه أو الخضوع لهوى النفس في حب موجوداته والتعلق بها دون حجة عقلية ..

يذكر أن رجلا جاء عمر بن الخطاب يطلب الطلاق بحجة عدم حب المرأة ، فرد طلبه ، وذكره بالتودد والرحمة وحسن المعاشرة ، كما أبلغه أن البيوت لاتبنى كلّها على الحـب..

الـفصـــل الرابـع:

كعب بن زهير :

عاش في بادية الحجاز بالقرب من المدينة المنورة ،على عادة الجاهليين،تغذى بفكرهم ، وتقلب في كنف مألوفهم ، ونهل من بيئتهم الثقافية ، ومارس تقاليدهم ، ورفض الانسياق للدين الجديد ، ولم يكتف بذلك ، بل تهكّم عليه في أشعاره ..

ولما بلغ الإسلام مبلغ القوة في المدينة ، ورجحت كفة الميزان لصالحه ، وعَنّت بوادر الغلبة والانقلاب الحضاري الجديد ، بلغ كعب أن الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . أهدر دم المتربصين بالإسلام في أشعارهم ..

شد رحاله إلى الرسول . ص . تائبا ، مكفّرا عن ذنوبه ، طالبا العفو والمغفرة، راجيا رحابة الصدر ، آملا في الرضا والقبول . ولما مثل بين يدي الرسول . ص . ألقى قصيدته المشهورة " بالبردة " على مسمعه الشريف . و قد احتوت في مطلعها ثلاثة عشر بيتا كلها في الغزل . غزل مضت أيامه في عهده الجاهلي الأول ولم تبق منه إلا الذكريات الراسخة ...

استهل قصيدته بتذكر سعاد التي نأت عنه في رحلة بعيدة ، متحدثا عما أحدثته في قلبه من انكسار وإذلال وضلال وصبابة وشوق ، معرّجا على ابتسامتها الساحرة في لمعان أسنانها ، وعبق ريقها ، ووسمها بطابع الغنّة في صوتها ، وغضّ الطرف في نظرها للدلالة على حيائها .

فجمع بين العفة في غزله حينما تحدث عن خصالها المغرية المحببة إلى القلوب ، وبين المفاتن الجسدية التي أخصها بها عند ذكر الثغر وبريق لمعان الأسنان ..

والإسلام الذي جاء ليتمّم مكارم الأخلاق ، لا بد أن يمهل معتنقه الجديد فترة زمنية قد تقصر وقد تطول حتى يجاهد نفسه ، ويستبدل الرذائل الخلقية بالفضائل المرغوبة في الدين .. وكعب لم ينل حظه بعد من الدعوة المحمدية ، كان

لا بد أن يعطى الاعتبار لنيته الصادقة في التوبة ، وأن يشجَّع عليها حتى يرغب في الدين الجديد، ويندفع في الترقي أثناء إصلاح النفس ، وهي عبرة في مدرسة محمد . صلّى الله عليه وسلّم . للكيفية التي يعامل بها الأفراد الجدد أو الذين لم ينالوا قسطا من تعاليم الإسلام ..السماحة والتيسير والترغيب..

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِيَ ٱلْيَوْمَ مَتْبُـولُ مُتَيَّـمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُجْزَ مَكْبُـولُ

وَ مَا سُعَادُ غَدَاةَ ٱلْبَيْنِ إِذْ رَحَـلُوا إِلاَّ أَغَنُّ غَضِيْضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِيْ ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّـهُ مُنْهَلُ بِالـرَّاحِ مَعْلُـولُ

ويتواصل تكشُّف ألمه متوجّعا ، هذا الألم الذي تأصّل في نفسه من جراء ما أحدثته من كآبة دائمة بسبب إخلافها للمواعيد ، وانتهى إلى حكمة بليغة ، تتضمن عدم جدوى الحب الذي لا يسفر عن نتيجة حقيقية ملموسة . ويبقى مجرد حلم وأوهام راسخا في الخيال ، عالقا ، مترددا صداه في النفس ، وإذا به يخاطب العقل بأسلوب التحذير من عواقب هذا الحب الشهواني الوهمي، الذي تسوء عاقبة صاحبه بهذا الشكل المعبر عنه في الأبيات ،وكأنه ينتهي إلى حكمة الإسلام من منع حب الأجنبية ، فهيبدلالها ترهق النفس ، وتصرفها عن الجد إلى اللهو ..

يَا وَيْحَهَا خُلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ مَا وَعَدَتْ أَوْ لَوْ أَنَّ النُّصْحَ مَقْبُولُ

كَانَتْ مَوَاعِيْدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً وَ مَا مَوَاعِيْـدُهَا إِلاَّ الأَبَاطِيْلُ

بَانَتْ : البون : الفراق البعيد . مَتْبُولُ : التبل : السقم والعلة . مُتَيَّمٌ: مضلل . هنا : مذلل من الهوى

مَكْبُولُ : مقيد . غَدَاةَ ٱلْبَيْنِ: أثناء الرحيل . أَغَنُّ: الذي في صوته غنة .

غَضِيْضَ الطَّرْفِ: خافض العين ، وهي أفضل صفات المرأة .

ثم انتقل إلى الحديث عن الناقة باعتبارها سفينة الصحراء الوحيدة التي تقرب المسافات ..

بعد كل هذه الجولة في نبش الذاكرة ، ينتقل إلى حاضره يمدح الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في باقي لاميته الطويلة :

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

لاَ تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الوُشَاةِ وَلَـمْ أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ عَنِّي الْأَقَاوِيْلُ

وبعد نهاية الإلقاء يخلع عليه رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ بُرْدَتَهُ للدلالة على القبول .. وتخلّد القصيدة بحادثتها خلود الإسلام ، لأنها نالت مسحة حبيب الله المصطفى ..

لكن هذه الحادثة في سيرة تواصل الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ مع شاعر ، تستغل عند دعاة الإباحية ، أولئك الذين يبحثون عن أدنى حجة ليضفوا الشرعية على أفعالهم وتروج بضاعتهم .. يزعمون أن القصة موضع استشهاد في حب الأجنبية .. حب قبل خطبة ،ومن خلالها تبقى الحادثة المعبرة المنطلق الصحيح ـ في اعتقادهم الباطل ـ لما يسمونه بالغزلالعفيف..

الدارس اللبيب ، يدرك بذوقه السليم ، وفكره الصحيح ،أن هؤلاء حكموا على القضية من ظاهرها ولم يتبصروا حقيقة النفس البشرية ، وكيفيات تغييرها من أعماقها ..

أهل البصيرة النافذة يرجعون دوافع نزع "البردة" على كعب إلى اعتبارات شتى :

ـ أن كعبًا جاء تائبا من دنس الجاهلية ومفاتن الدنيا ، يبتغي سماحة سيد الخلق ـ صلّى الله علايه وسلّم ـ وإن كان الشاعر قد رسم صورة الحزن والقلق في دلالة الغنة في صوتها .. فهي حيِّة ، تغض الطرف تعبيرا على عفتها وطهارتها ..وهذه خصال أقرها الإسلام وحث عليها على وجه الإلزام ، ووشح تلك العواطف النبيلة ، الفياضة ، الجياشة التي تجمع الرجل بالمرأة بوشاح الزواج الشرعي

المنظم لينصهر الطرفان في بوتقة ، ويشكلان حياة واقعية تتواصل فيها صورة العنصر البشري ، وتشكل نصف الدين لما لها من أهمية الحصانة النفسية في حياة الأفراد والجماعات ..

. أن كلمة الشاعر الغزلية تنتهي إلى حكمة جليلة تدعو الأذهان إلى الإقلاع عن التفكير في حب الأجنبية والذي لا يرجى منه خير سوى إنفاق زهرة العمر في مطاردة أضغاث الأحلام الوهمية التي تبعد صاحبها عن الواقع وتضلله عن حقيقة الرسالة التي خلق من أجلها .. عبادة الله .. بتعمير الأرض بالعمل الصالح ..

. أن سيد البشرية على وعي تام بطريقة التغيير التي لا تتم في ظرف وجيز .. إذ حتى يعتنق المرء كل جديد لابد له من صقل الموهبة .. واعتناق المبادئ السمحة ، وتمكينها في النفس لتستقر في الشعور الباطن وتترجم في سلوك .. فتحويل الفكر النظري إلى تطبيق ، يتطلب ممارسات متكررة وإرهاص .. وتذكر ونسيان ، وتتفاوت فيها نسب التنفيذ لمدة زمنية معينة حتى تصير عادة مألوفة ...

الحب وأعراف البادية

عوامل ومؤهلات النشأة الأولى في مرحلة الطفولة ، ترسخ أخلاقا مميزة لذلك المحيط الذي يعيش في كنفه الإنسان ، وترسب تلك الخصال ،وتنقش في الذاكرة نقوشا قد لا تمّحي ،ولا تتغير طيلة الحياة ،ما لم تتأثر بمتغيرات جديدة ، أو صدمات نفسية عميقة تهز الكيان هزا ، فتحرك فيه هذه الدوافع- نوازع الدفاع والمقاومة - هذه الأخلاق قد تكون فاسدة أو حميدة حسب الغذاء الذي تقدمه البيئة الاجتماعية بكل أفاعيلها الطبيعية ..

والبيئة البدوية لها خصائصها التي تساهم في تشكيل ملامح شخصية صاحبها ..

كون الفرد في البادية ينشأ في متسع من الأرض ، في فضاء فسيح يتقلب في أرجاء طبيعته الأصيلة ، غير الملوثة بأيادي التغيير ورياح التبديل ، المكرسة لأجواء الحرية الوجدانية الفسيحة ، هذه الحرية يدعمها العيش في كنف أسرة من والدين وإخوة ، وجيران يبعدون مسافات تسمح بالحركة الطليقة ، وليسوا غرباء عن بعضهم ، معظمهم أقارب وأبناء عشيرة ، وأعضاء قبيلة .. جدهم واحد ، وأصلهم واحد ..

وقد ترسخت - تدريجيا - عادات وتقاليد وأعراف .. ترسم معالم الطريق الواحد .. يسير فيه الجمع بقوانين واحدة..فلا تتضارب المصالح،ولا تتداخل إلا في حدود ما تسمح به الأعراف..وهذه أحد أسباب استتباب الأمن والطمأنينة بين أفراد القبيلة الواحدة.فالهوية واحدة ليس فيها أفكار دخيلة مناهضة لها،وإذا دخلت فكرة نقيضة ،فكل ينتبه لها بطريقة آلية، والكل يرفضها كونها خالفت العرف،ولا يعاني آلامها،ولا يكابد مضامينها، ولا يتحمل نتائجها إلا معتنقها الذي جنى على نفسه،حينما تقمص الجديد سواء أكان خيرا أم شرا،المهم عند

المجتمع البدوي أنه خرق العرف، وتمرد على القيم الاجتماعية،وخرج عن المألوف ، وكل ما رسخته العادة ..

البدوي بطبعه صبور على الشدائد ، فهو قوي قوة الطبيعة المحيطة به ، لعله تدرب على الشدة ، فألف الحياة القاسية ، وأعطى البيئة ما تستحقه من تبعات ، وتكاليف حتى ينسجم معها أثناء التفاعل .. مع الشدة هناك بساطة في الحياة ، فهي خالية من التعقيدات ، ومع الغلظة في المعاملة هناك ليونة يفرضها الاحترام ، ومع القساوة هناك رهافة حس ، ورقة مشاعر .

فهي الفطرة السليمة إذن تبعثها نسمات تلك الطبيعة الاجتماعية الصافية غير الملوثة بنقيض أو مصارع .. والناس في ذلك مراكز اجتماعية مختلفة ، كل يعرف دوره ، وحاجته . يدرك قدره ويقف دونه بلا شطط . الغني بما هيأته ظروف الغنى من وسائل وامتيازات ، والفقير بما فرضته عليه أسباب الحياة ، والقوي بما منحته دعائم القوة ، والضعيف بما رسمه له القدر من ضعف . كل حسب حالته ..

والمرأة التي تمثل محور الكرامة لدى الرجل ، حتى لا تخدش هذا الشرف ، ولا تلوث المحيط البسيط الصافي بما يعكر الحياة ، تصان وتحفظ ، ولا صيانة إلا بحجبها عن الرجل . إن عدم رؤيتها تكفي لتجنب الفتنة ..

حضر الاختلاط بعث في نفسية الإنسان المفطور على التوق إلى الطرف الآخر ، الشوق والحنين ، و ولد التعلق الشديد بالمرأة .. وكل محضور .. مرغوب ومطلوب .. ولكن للزواج فقط..هذا البعد جعل مجرد الرؤية للمرأة ، أو الحديث الخفيف معها ، أو مجرد سماع أخبارها الطريفة ، مصدر تعلق وشوق وتشبث قد يدوم ..

عادة مرحلة الشباب الأولى هي الأرضية الخصبة التي تغرس فيها شجرة الحب .. والشباب ذكرا أو أنثى أمام هذه الرغبة النفسية الجامحة التواقة إلى الالتحام بالطرف الآخر ، التحاما معنويا ، لم يلق تعلما ، فهو لا يعي النتائج

المترتبة عن ولوج مغامرة غرامية غير مشرعة اجتماعيا ، إذا اكتشفت حضرت لخرقها العرف القبلي .. المهم أن يعيش يومه يتلذذ بهواه ، ويعيش مرحلة شبابه بصورة فطرية هكذا صنعها القدر،ولكن القدر سن لها قوانينها الشرعية ..

يبدأ الشباب بلذة لتنتهي بقية أيام عمره بألم..لا يشاطره قريب أهواله ، ولا رقيب على أحواله الباطنية ذات الانكسارات والتعاريج المتضاربة إلا خالقه الذي خيره وابتلاه ..

وشعراء الغزل العفيف ، مع عفتهم ،وطهارة مشاعرهم ،ونبل غاياتهم ، اخترقوا المحضور ، وعجزوا في بداية أمرهم عن كبح جماح النفس عن غواياتها ، وتمادوا في النشوة ، حتى بلغ الحب منهم مبلغ العظم ، ثم رفضتهم الأعراف الاجتماعية ، ولفظتهم الحياة القبلية . ذلك أن المحب في كل الأحوال عجز عن كتمان السر ، أو طرق الأبواب الحقيقية للزواج منذ مرحلة الإعجاب ليعرفوا موقعهم من القضية ، وما ستسفر عنه . فشبّبوا بمن أحبوا ، والعرف يعتبر ذكر الأسماء والتصريح بالحب فضيحة لن تنتهي بلقاء شرعي.. فالشاب يعتبره العرف ، قد اختطف الفتاة ، وتزوجها غصبا عن ذويها ، وهذه مذلة تكسر جسور الكرامة لا يطيقها الآباء .

وللتذكير بما أحدثه الحب - غير المنظم - من خراب نفوس ، ودمار ديار ، وتعاسة أهالي ، نترك أشعار الغزل تنساب من أعماق نفوس أصحابها لتكشف عن أحوالها ، نطعمها بتعاليق ، وشواهد تفصل ما ينبغي أن يكون على ما هو كائن ..

الغزل العفيف :

إن كان في أجنبية فظاهره عسل ، وباطنه علقم ..

إن كان في زوجة فهو مودة ورحمة وسكينة .

وإن كان له أثر إيجابي ، فهو يصقل الذوق ، وينمي المشاعر ويرققها ، يرهف الحس ويقويه ، يرقي العاطفة ويثريها ، فتبدو فياضة ناصعة .. وهو عفيف لأنه يرفع صاحبه عن دنس مفاسد الأخلاق ،بل ينظف روح صاحبه حتى يبلغ قمة الطهارة ، ومنتهى النقاء الوجداني.فهو يعلم المحب كيف يحسن معاملة الطرف الآخر بحنان ولطف ،ورفق ،وكيف يكون مستعدا للاستجابة للمحبوب بتنفيذ جميع الطلبات .. فالمرأة إن طلبت أمرت،وإن رضيت أسرت ،وإن هجرت أضجرت،وحرمت ..

ولئن كان هذا النوع يعلم الصدق والإخلاص والوفاء،فهو في غير محله .. لأن هذه الفضائل لا تأتي عن رغبة واختيار ، بل لأن صاحبها وقع في فخ الامتلاك فهو مسلوب الحرية ، وهو أسير الحب ، ولا يملك إلا الصدق والوفاء . إن المحب مرغم عن النزول عند رغبات المحبوب ، فهو خاضع ، ورافض لسماع أو لرؤية كل عيب يزعج المحبوب..فهذا الحب يأسر صاحبه ويجعل عقله لا يخرج عن فضائه .. يشغله عن واجباته في النهاية ..

وفي هذا المقام ، ينقشع بريق الوهم لينجلي في أتم معانيه ، ويبدو اللبس الكبير والخطير الذي تتحول فيه عناصر الفضيلة من صدق وإخلاص ووفاء إلى رذيلة لأنها استخدمت في غير موضعها الشرعي.. إذ تختلط المحاسن مع القبائح،ويصعب التمييز عند النشء،ونحن ندرك أن حب الأجنبية غير مشرع به ، حتى وإن صدق وأخلص..بل أكبر القبائح ما يسمى بعشق الصورة ..

ولئن كان هذا الحب في ظاهره نعيم ، فهو في باطنه جحيم ، وعذاب دائم ، وتتضح لنا نقمة هذه اللذة على صاحبها في العناصر التالية :

الاتصال البريء :

الشاب في صغره نقي الثوب ،متطلع إلى حياة سعيدة ،قليل الذنوب ، عديم التجربة ، قريب من الفطرة ، غير خبير بمتاعب الدنيا ومصاعبها ... أول ما تتسلل نسمات الحب الأولى إلى قلبه حينما يصطدم بمن تناسب ذوقه ، يكون قد رسم ملامحها في مخيلته ، أو وقعت على نظرة مفاجأة ، تبهره بجمالها إن حسيا ، وإن معنويا ، فيهتف إليها فؤاده . يتوق إليها بكل مشاعره ، ويعتقد فطريا أنها جزء يكمل حياته .. فهي مودع السكينة ومقر الطمأنينة .. تظل صورة اللقاء الأول عالقة - أبدا - بذهنه ، تطارده في كل زمان ومكان ، ويحلو له كل مرة أن يتكرر هذا اللقاء الذي ترتاح له جميع الأعصاب ، وتهدأ أمامه كل العواصف .وتحضر النفس بكل قواها ، لتجوب الروح في فضاء اللذة وتنعم بالسعادة ..لكن هذه اللقاءات قليلة - إن حدثت-تقف عند حدود الرؤية،ولا تسمح بكشف العيوب..وتظل الذاكرة متعلقة بأول خطوة ..

يتطور الإعجاب إلى شغف ،ثم يرتقي إلى وجد ووَلَه وشوق،وهي كلها عناصر حب تنظم مراتبه.حتى يبلغ درجة الانشغال الدائم كمجنون ليلى و غيره ..

فالشاعر حينما يشبب باسم المرأة ، يحرم نفسه منها ، هكذا قضت قوانين أعراف القبيلة أو المجتمع، فهو متمرد ، وهو خارج دائرة التكتم إلى فضاء الفضيحة ..قد أفشى أسرارا ، وخرق قيما ، يحضر المجتمع تداولها ، وذلك يحط من همة أهل المرأة ، ويطعنهم في الشرف الذي بدونه لا يكون الإنسان إنسانا ، هم يفسرون الحياة كذلك .. وتكون عقوبة هذا التهكم هو الرفض حينما تحجب عنه ويتقدم لخطبتها ..

الصد والحرمان :

يمنع المحب من الزواج فهو مصدود..وأبواب اللذة في وجهه موصدة .. تكتنف الحرقة قلبه ، ويكتسحه ألم الفراق ، ولا يكاد يطيقه..فهو مكبل وسط سياج الحب الذهبي .. ويكابد كدر الحرمان :

أضحى التنائي بديلا من تـدانينا و ناب عـن طيب لقيانا تجافينا

بنتم وبنا فما ابتلت جوانـــحنا شوقا إليكم و لا جفـت مآقينا

نكاد حين تناجيكم ضـــمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

والله ما طلبت أهواؤنا بدلا منكم ولا انصرفت عنكـــم أمانينـا

إن الطرف المكمل لحياته ، بعد أن أصبح ينظر إلى الدنيا من خلاله ، وبعد ألفة .. فقده . فهو مفصوم الروح ، مشطور الوجدان . وتَعْلَقُ الصورة بذهنه فهي تمتلك كل خياله ، ويشعر دائما بنقص في ذاته ،ينغص عليه حياته ، ويكدر صفو عيشه، إذ لا راحة،ولا سكينة إلا بوجود المحبوب ماثلا أما عينيه في الواقع على وجه الحقيقة.وأنى له ذلك وقد قوبل بالرفض .

قد تتكرر محاولات طلب الرضا والقبول،ليجتمع شتات الروح المبعثر ، ويبذل الجهود المضنية ولكن..تعتلجه الانكسارات الداخلية ،ويهز من الباطن ، وتتقلص فرص المقاومة للواقع من الأعماق ، ويبدأ الانهيار .. إن معاناة حرمان الحبيب من المحبوب الذي بلغ حبه درجة التعلق الذي يعني اللارجوع ، من المصائب الكبرى التي تصيب العاشق الولهان لأثرها الخطير على حياته ، وعلى نفسيته ، بل حتى وجوده فوق الأرض ..

لذا لا يوجد حل للمتحابين إلا الزواج نظرا لما يترتب عن الحرمان من خراب للبيوت ، ودمار للمجتمع .

إن المتدبر للشريعة الإسلامية ، يجدها وضّبت الأمور ، ووضعت كل شيء وفق نظامه المنوط به . فالمسلم مطالب بغض النظر ، وعقد النية الصادقة في اجتناب الجنس الآخر عدا في حدود المصلحة ، وذلك بمجاهدة النفس ، وكبح

جماحها عن غوايتها . ومطالب أيضا بمقاومة تلك النظرات السامة القاتلة بالصوم والصبر حتى يحقق الباءة .. وعليه أن يبذل جهدا في تحصيل متطلبات السكن النفسي ، وفوق ذلك عليه ألا يفتح بيتا إلا بما هو حلال من مال .. المؤمن مبتلى في كل شيء .. ويشقى في كل شيء ..

بمجرد تحقيق شروط الزواج يبحث عن المرأة الجديرة به أو الجدير بها . يبادر بالخطبة وكلاهما يدرك أنها مرحلة جس نبض ، وتفاهم ، وتدارس ، هو يدرك أنه يمكن لأي طرف أن يفسخ الخطبة فيحافظ كلاهما على مشاعره ، فلا يهيم وراء سراب المشاعر البراقة .. فإذا تحقق مشروع الزواج ، سادت الألفة ، وتفتحت كل أبواب الحب الموصدة ، بحيث تكون خطبة إيجابية نحو دعم هذه العلاقة المقدسة ، بحيث يعمل كلا الطرفين على حسن المعاشرة لتسود المودة والرحمة ، ويتحقق السكن النفسي ..

الحب رغبات وأهواء نفسية ..

الإسلام أخضع هذه الأهواء لميزان العقل ..

عشق الصورة :

لعشق الصورة انعكاسات خطيرة على حياة الفرد والجماعة ،لما تلحقه من أضرار بالغة الأهمية في نفسية الفرد ذكرا كان أم أنثى .. هذه الصورة جسر ينقل المرء من الجدية إلى البلادة ، ومن العقل إلى الخبل، ومن الواقع إلى الحلم ، ومن الحقيقة إلى الوهم ..

إذا تمكن العشق من إنسان ، أعمى قلبه ، وسد منافذ عقله ، وتربعت صورة المعشوقة على مملكة الخيال ، واعتكف على التفكير الدائم فيها عليها واكتفى بها ،ولم يعد له مطلبٌ في حياته سواها..نعم هذا هو حال العاشق ..

العشق يتمكن من صاحبه حينما يرى في معشوقه ما يبهره ، ويشد وجدانه وروحه إليه ، فإذا تغلغل في الشعور الباطن للنفس ، صعب التخلص منه ، وليس له دواء سوى وصال الحبيب ، والعيش بقربه، والنظر الدائم إليه ، وهذه الفكرة تترسخ في نفس العاشق بسبب ندرة الاتصال أو استحالته وما يتولد عنه من حرمان .. والمنع يزيد الوله ، ويمكن الولوع ، ويضفي على النفس كلمات الهيام .. فكل محضور .. مرغوب فيه ..

فإذا ما اعتاد العاشق الانطواء على نفسه ،للانشغال بصورة المعشوق وأطال مناجاتها ، ليجد متعة في الحلم ، ما دام الواقع قد ردع الرغبة النفسية وأهواءها .. تجرد من كل واجباته الرسالية في الحياة ، وتحلل من كل مسؤولية تشغله عن صورته المعشوقة ، وهكذا ، بعد طول مدة يجد نفسه عبدا مملوكا مكبلا بقيود الحب ، واقعا في شرك المحبوب ، كيفما وجهه يسير ، طلباته عنده أوامر حقيقية ، وتنفيذها واجب وضرورة ..

أَبْثَيْنَ إِنَّكِ قَدْ مَلَكْتِ فَأَسْجِحِي وَخُذِي بِحَظِّكِ مِنْ كَرِيْمٍ وَاصِلِ

إن العاشق المحروم من محاورة المعشوق ، والممنوع من التمتع برؤيته الدائمة والحديث إليه ، يصعب عليه كشف العيوب البشرية في المحبوب ، ولو كشف هذه العيوب لما تجرد بفكره من الواقع المعيش المليء بالعيوب والسلبيات .. واحتجاب العيوب عن الحبيب ، يزيده انبهارا في صورته التي استقرت . يقينا . في مخيلته ، يعتزل الناس ، ويشرع في بناء حياة مثالية ، خاصة به ، وما يرغب أن يراه في معشوقه ، فينسج له مبادئ خيالية ، وقيم وهمية ، تتفق مع تصوره للوجود ، مطابقة لأخلاقه ومزاجه ، وأهوائه .. حتى يصير مخبولا ، فاقدا للتمييز بين المتناقضات في الحياة ..

عادة تكون الفضيلة هي منبع هذه المثاليات التي لا تتحقق في الواقع ، وهذه المثالية تولد في نفسه العفة ، والطهارة ، والصفاء ، وتحيطه بسياج الصدق في المشاعر ، والإخلاص والوفاء ، فلا يتمكن أبدا من الالتفات إلى امرأة ثانية ، فينقذ نفسه ، ويخرج من براثن هذا الحب الذي أضحى يمثل لديه حالة مرضية خاصة .

إن عشق المرأة التي لا يتم التعرف إليها بعقد شرعي،هدفه الزواج ، يعتبر في الإسلام عشق أجنبية، محرم شرعا،وليس له إجازة ،وهذا يدل على أن ما صار هنا فضيلة من صدق وإخلاص ووفاء..هو في حقيقة أمره رذيلة لأنه خروج عن حدود الشريعة الإسلامية..فالقيم عند المسلم تنضبط بضوابط شرعية ..

المسلم مطالب بملء كيانه بحب الله ، عبر تنفيذ الأوامر والنواهي الواردة في منهجه ، مقتديا بسنة الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . والعمل على ممارستها في سلوكاته اليومية ، حتى يترجم العلم بالكتاب والسنة إلى سلوك في حياته ، والعلم بلا عمل يضر صاحبه . ودعامة ذلك الذكر الدائم ، حتى لا يكتب من الغافلين الذين نسوا الله ..

لكن القلب الفارغ من الذكر ، سريع التعلق بصورة المعشوقة .

وهذا النوع من العشق للصورة الذي يستبدل فيه العاشق مكان ذكر الله والتعلق به بصورة يعتبره ابن القيم الجوزية-رحمه الله-من الشرك الذي ليس له دواء سوى الذكر الدائم .. والعودة الشديدة إلى الله ..بالاستغفار..

إن المحب بعدما يستفحل الحب في ذاته ، ويطغى على وعيه ، يلج متاهة الاغتراب والحيرة ، يكون قد خالف الفطرة البشرية في الاعتدال وتحقيق التوازن بين الحب والواجب .فقد خضع لهوى النفس،وانصاع للذة الحب في بدايته ، وطاوع نفسه في اختراق حدث الهوى ،وانساق وراء المتعة .. وغيب العقل الذي يكبح النفس ، في نطاق ما حدث من مغالبة ، بين ما هو كائن من لذة الحب وغمرة سعادة ، وما يجب أن يكون من صبر وتعقل وحكمة في التفكر في الآثار التي تترتب عن قرار مغامرة قد تنتهي بالألم إن لم يكن الهلاك .. فقد استبدل صلة خالقه بصورة بشرية معشوقة .

" ... فلا يمكن أن يجتمع في القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبدا ، بل هما ضدان لا يتلاقيان ، بل لا بد أن يخرج أحدهما صاحبه ، فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذي محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك على محبة ما سواه،وإن أحبه فلا يحبه إلا لأجله ، أو لكونه وسيلة إلى محبته ."[1]

ويواصل نفس الفقيه : " وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال ."[2]

ويعتبر اتباع الهوى عقاب من الله :

" ... بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره ."[3]

قال الشاعر :

إِنِّي رَأَيْتُ عَوَاقِبَ الدُّنْيَا فَتَرَكْتُ مَا أَهْوَى لِمَا أَخْشَى

---

(1)، (2) ، (3) :الداء والدواء : ابن قيم الجوزية دار الشهاب باتنة . ص 288 .

انقلاب الموازين :

يَمُوتُ ٱلْهَوَى مِنِّيٍّ إِذَا مَا لَقَيْتُهَا وَيَحْيَا إِذَا فَارَقْتُهَا فَيَعُودُ

إن متعة الوصال التي يبحث عنها الشاعر في غياب تتحقق حينما تحضر الصورة المحسوسة التي انعكست بكل أصدائها وجزئياتها في ذهنه وتكتفي بذلك .. هذه المتعة هي فضاء النشوة الحاصلة باللقاء .. تلك اللحظات التي تتجمع فيها كل الأحاسيس المبعثرة ، إلى الحبيب..إنها الجوارح كاملة يلتحم شتاتها،وتنصهر مجملة في بوتقة الرؤية التي جسدتها العين المجردة..وقد عف الشاعر وتطهرت جوارحه،وتسامت عن فعل الأعضاء الحسية،حتى صار التفاعل والتأثير عملية روحية صافية مجردة ، قوية العمل في النفس إلى درجة القتل النهائي لكل فعل حيواني شهواني .. نشوة التنعم باللقاء هي نشوة الروح حينما تسعد بهدوء الأعصاب المتوترة عند الغياب .. هي غبطة الطمأنينة ، وهدوء عاصفة التوق التي بعثرت الكيان ، وغلّقت الوجدان مدة الغياب .. هي أيضا لحظة استقرار النفس إثر تواجدها في كنف الأمان .. وكأن الروح المنشطرة لقيت جزءها التائه عنها ..

إن الغاية القصوى قد تحققت للشاعر ، وهي مجرد الرؤية ، والتلذذ بالنظر إلى صورة المعشوق .. ولو تكرر اللقاء ، وتكثف الحوار لبدأت النفس تسأم تدريجيا .. والصورة النقية تتجلى شيئا فشيئا ، وتتدحرج إلى مكانها الحقيقي بسبب كشف بعض العيوب فالتدني من مستوى الصورة المثالي إلى مستوى واقعي ، يحققه اللقاء الدائم وتبادل الكلام ، ويتلاشى الخجل ليفصح كل طرف عن حالته ورغباته ، ونظرته إلى الوجود .. ثم تشعر النفس بالرغبة في الانتقال من هذه المرحلة المثالية إلى مرحلة الممارسة الحقيقية لعملية تواصل جنسين بصورة طبيعية ..

لكن معرفة الشاعر لبثينة توقفت عند اللقاءات الخاطفة ولم تتجاوزه إلى المكاشفة الروحية .. فتوقف عند حدود حب حرم منه ، فبقي القلب متعلقا باللحظة الأولى في الحب يصاحبها أمل .. وارتبطت العاطفة بالحادثة الأولى

وشدت العقل بخيالها فاعتكف عليها .. ووقف عند مستوى الاكتفاء برؤيتها ... وعلق بصورتها ..

لقاء الشاعر لمحبوبته كان خاطفا وسريعا ، ربما مرة أو سنوات ، ولا يسمح الجو بالخلوة ، فهو يحب عن بعد .. وهذا البعد يولد الحرمان .. لذا تجدها إذا فارقته بعد فترة وجيزة يجد عقله بالتفكر فيها ، وانشغل بصورتها نهائيا عن غيرها من مصالح دنيوية فتنتابه عوالج الشوق والحنين ، وتحيا رغبة الحب وتتقوى ، وتعود إلى حالتها المرضية الأولى .. فقصر اللقاء لم يكشف العيوب..و لم يشبع الروح بالمتعة .. لتبقى الصورة المثالية عالقة في الذهن .. والشاعر هنا يكتفي بعشق الصورة المجسدة أمامه في مخيلته ، مفتون بجمالها ، مولع أكثر بحبها والتعلق بها .. ولا صارف يصرفه عنها .. فهو هائم ، تائه لا شيء يرده إلا العيش معها ..

وقد ألف الشاعر نيران الحب التي تلتهب بين جوانحه عند غياب المحبوب ، فتلسعه بألسنتها .. إنه الإنطواء على النفس ، والرضا بالعيش في كنف الحلم ، حتى بدا الواقع مفزع غير مرغوب فيه ..

جميـــل بثينة :

في أرض الحجاز ،بوادي بغيض ،وهو شاب يافع ، وفي غفلة من أمره ، دون سابق إنذار ، وهو في المرعى .. أطلت عليه بثينة وجارتها ، فزجرت فصيلا له اعترض مسيرها وهي تتبع أنعامها إلى مورد الماء.. سبها فردت عليه بالمثل .. قضى أياما يقلب النظر في تعاريج الحادثة ، وبدأ القلب ينبض بأول هاتف حب .. ولم يعد الشتم موقع صدام يفرز التباعد والعداء ، بل كان منبع الحب والوئام . لقد رمته بسمها فأصابت قلبه ، وانسلت فهو جريح ، وابتلت روحه على غرة فهو كسيح . وراحت تدريجيا نسبة القدرة على الفراق والهجر تنزاح وتتدحرج ، ونسمات الحنين إلى القرب والمؤانسة تتكاثف وتقوى ، حتى تكبل كيانه في حبائلها ، وانساق طواعية كسير الجناح ، مشغول الفؤاد ، فاقد المقاومة . إنها فطرة الحب الأول الذي تمنع لذته النسيان أو التبديل ، وتظل ذاكرته تختزل الحادثة الأولى ، والفكر يجليها عبر الزمان فلا تموت إلا بموته :

وَ أَوَّلُ مَا قَادَ الْمَوَدَّةَ بَيْنَنَـــا بِوَادِي بَغِيْضٍ ، يَا بُثَيْنُ ، سِبَابُ

فَقُلْنَا لَهَا قَوْلاً ، فَجَاءَتْ بِمِثْلِهِ لِكُلِّ كَلاَمٍ ، يَا بُثَيْنُ ، جَـوَابُ

هام في هواها ، وولع ، ولم يعد بمقدوره مقاومة الصبر على الكتمان ، أو هو لا يدرك - في سنه المبكر - آثار البوح والتشبيب ، ووَقْعِهِ في النفس ، لقد صرّح باسمها في أشعاره الأولى ، وعلم الناس بخبره وتداولوه ، ورموا أهلها بداء الفضيحة التي تبدد رونق الكرامة والشهامة والعزة .

ويكفي هذا لأن يتقدم خاطبا فيرمى برمح الرفض الطاعن في قلبه . وهو محمل بسموم الحرمان ولا طاقة على الصبر . لقد أذكى فتيل الحرمان ، تجلي صورة المعشوقة في مخيلته وترسبها في النفس ، فزاد تعلقا،لتحدد صورتها فضاء الفكر فلا يخرج عن مساحتها ، ولا يتفرغ إلى سواها ، أو يخرج إلى فضاء آخر يمارس فيه حياة طبيعية .. إنه الاكتفاء بالصورة والاعتكاف عليها :

أَبُثَيْنَ إِنَّكِ قَدْ مَلَكْتِ فَأَسْجِحِي وَخُذِي بِحَظِّكِ مِنْ كَرِيْمٍ وَاصِلِ

تتفجر قريحته ، ويثور على العادات القامعة ، الرادعة لأجمل ما يراه جميلا ، تكبر آلامه وتتجمع لتنحدر مُنْسَابة في فيضان مشاعر النفس الشفافة المتجردة من كل حاجز أو حجاب .

صُدَّ عن حبيبته ، وتَعْلَقُ صورتها بعقله ، علّقته ، وحرّفته عن رسالته المنوطة به في الأرض ، ولم يعد يحتمل الفراق ، فهو مصر كل الإصرار على رؤيتها ، وقد خبل ، فهو موله ، ومولع ، وهائم ، ومتيم بحبها ، ولم تعد له حدود حمراء يقف دونها .. صار حبه في باطنه سجينا مكبلا ، ويختلط عنده فضاء الحلم بفضاء الواقع فالتبست عنده الحقيقة بالخيال .

وَقَالُوا جَمِيْلُ بَاتَ فِي الحَيِّ عِنْدَهَا وَ قَدْ جَرَّدُوا أَسْيَافَهُم ثُمَّ وَقَفُوا

وهو يرصد أوجاعه ، وما يكابده من آلام المنع والخذلان :

وَمَا ذَكَرَتْكِ النَّفْسُ يَا بُثَيْنُ مَرَّةً مِنَ الدَّهْرِ إِلاَّ كَادَتِ النَّفْسُ تَتْلُفِ

ورد في الأغاني : "كان يصعد بالليل على قور رمل يتنسم الريح من نحو بثينة ويقول :

أَيَا رِيْحَ الشَّـــمَالِ أَمَا تَرَيْنِي أَهِيْمُ وَ أَنَّنِي بَادِي النُّحُولِ

هِبِيْ لِي نَسْمَـــةً مِنْ بُثْـنَ وَ مُنِّي بِالْهُبُوبِ إِلَى جَمِيْلِ

وَقُوْلِي يَا بُثَيْنَةُ حَسْبُ نَفْسِيْ قَلِيْلُكِ أَوْ أَقَلُ مِـنَ الْقَلِيْـلِ

فإذا بدا وضح الصبح انصرف . ص 188

ولما انتجع أهل بثينة من الحجاز إلى الشام ، ضاق ذرعا ، ولم يطق فراقا فلحق بهم ، ليشكوه إلى عشيرته وذويه .. فكان منهم النصح والحث على الانصراف كلية عن هذا الحب المدمر لشخصيته ، وشددوا عليه اللوم على تعلقه بإمرأة متزوجة ،فكان منه البكاء الحار الذي أبكى الحاضرين وأباه ، لما رأوه منه من هيام ، وقال لاميته الشهيرة مطلعها :

أَلاَ مَـنْ لِقَلْبٍ لاَ يَمِيْلُ فَيَذْهَــلُ أَفِقْ فَالتَّعَزِّي عَـنْ بُثَيْنَةَ أَجْمَلُ
فَيَا قَلْبُ دَعْ ذِكْــرَى بُثَيْنَةَ إِنَّهَاَ وَ إِنْ كُنْتَ تَهْوَاهَا تَضِنُّ وَتَبْخَـلُ
وَ آخِرُ عَهْــدِي مِنْ بُثَيْنَةَ نَظْرَةٌ عَلَى مَوْقِفٍ كَادَتْ مِنَ الْبَيْنِ تَقْتُلُ
إِذَا مَا كَرَّرَتِ الطَّرْفَ نَحْوَكَ رَدَّهُ مِنَ الْبُعْدِ فَيَّاضٌ مِنَ الدَّمْعِ يَهْمِلُ

وتوفي بعد مُقام طويل سنة 82 هـ ، وبعث مع رسول لبثينة :

قُومِي بُثَيْنَةَ ، فَانْدُبِي بِعَوِيْــلٍ وَابْكِي خَلِيْلَكِ دُوْنَ كُــلِّ خَلِيْلِ

قال عباس بن سهل الساعدي ، وفي قوله دليل على عفة الشاعر :" لقيني رجل من أصحابي فقال : هل لك في جميل ، فإنه يعتل ، نعوده ؟ فدخلنا عليه وهو يجود بنفسه ، فنظر إلي وقال ، يا ابن سهل ، ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط ،ولم يزن ، ولم يقتل نفس ، ولم يسرق ، يشهد أن لا إله إلا الله ؟ قلت : أظنه قد نجا وأرجو له الجنة ،فمن هذا الرجل ؟ "

قال: أنا.قلت :ما أحسبك سلمت وأنت تشبب ببثينة منذ عشرين سنة .

قال : لا نالني شفاعة محمد إن كنت وضعت يدي عليها لريبة.ص 191

وجميل يعترف يقينا أن بارئه سبحانه ابتلاه بهذا الداء العضال .. الحب الشاغل ..

فَقُلْتُ لَهُ : فِيْهَا قَضَى اللهُ مَا تَرَى عَلَيَّ ، وَ هَلْ فِيْمَا قَضَى اللهُ مَنْ رَدِّ
لَقَدْ لَــجَّ مِيْثَاقٌ مِــنَ اللهِ بَيْنَنَا وَلَيْسَ لِمَنْ لاَ يَعْرِفُ اللهَ مِنْ عَهــْدِ

وهو يعترف أنها سلبت عقله ، وصارت صورة عالقة بذهنه . بل تخلى عن نفسه وانشغل بصورتها:

فَلَوْ تَرَكَتْ عَقْلِي مَعِــيْ مَا طَلَبْتُهَا وَلَكِنْ طُلاَّبِيْهَا لَمَا فَاتَ مِــنْ عَقْلِي
فَيَا وَيْحَ نَفْسِي حَسْبُ نَفْسِي الَّذِي بِهَا وَ يَا وَيْحَ أَهْلِي مَا أُصِيْبُ بِهِ أَهْلِي
خلِيْلَيَّ فِيــمَا عِشْتُمَا هَــلْ رَأَيْتُمَا قَتِيْلاً بَكَــى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي

لكن هذا الحب جنى عليه ، وشغله عن واجباته في الدنيا ..حتى بلغ به الأمر الاستهتار بالدين :

يَقُولُونَ : جَاهِــدْ يَا جَمِيْلُ بِغَزْوَةٍ وَأَيُّ جِهَــادٍ غَيْرُهُنَ أُرِيْــدُ

لِكُلِّ حَــدِيْثٍ عِنْـدَهُنَ بَشَاشَةً وَكُــلُّ قَتِيْلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيْــدُ

هذان البيتان شاهدان على أن ناصحيه المخلصين ، كانوا يبحثون له عن بديل يؤدي من خلاله رسالته في الوجود ، ويشغله عن الحب،وفعلا أرشدوه إلى مالك الداء والدواء .. إلى الله .. ولكن عصبيته زادت وحبه قوي ، وتشبثه كبر كلما نصحوه .. فهو مجنون بثينة بحق ..

وهو يقر تعاسته الدنيوية التي كانت لذة الحب الأولى بوادي بغيض هي بداية رحلتها ..ويقضي أيام عمره في منطقة متوسطة بين الموت والحياة .. فلا هو نعم بقرب الحبيب ، ولا هو مات واستراح :

عَلَى أَنَّ مَنْ مَاتَ صَادَفَ رَاحَةً وَ مَا لِفُؤَادِي مِنْ رَوَاحٍ وَلاَ رُشْدِ

الغزل : تاريخه وأعلامه . جورج غريب . دار الثقافة . بيروت .

المعتمد بن عــباد :

لعل طالب العلم ،يطالع في كتب التاريخ،أسباب ضعف الأمة الإسلامية ، في العصور الوسطى،ويقف عند عامل رئيسي يتمثل في فساد حكام الإمارات، وميلهم الجامح إلى اللهو والترف .. وقد لا تذكر شواهد تفصيلية، فتبقى الموضوعية والحقيقة منقوصة الأدلة ...

ولعل الشخصية التي نخصها هنا بالحديث . حجة دامغة في تثبيت هذه الحقيقة . وقد أفاض فيها الحديث كل من "المقرّي" في كتابه : "نفح الطيب" ، وكذا "لسان الدين بن الخطيب" ... لنلاحظ تصريح هذا الدارس :

" (صراع المتناقضات في الأندلس) ، ولعل أبرز ما يمثله في ذلك العصر ، ما يطلق عليه اسم محنة المعتمد بن عباد " (1) .

ما بين معقفين ، تصب فيه كل المتناقضات المتعلقة ، بتأويلات العقل في المجال السياسي ، وأقرب تأويل لدينا وأبسطه ، هو الصراع بين الجد واللهو ، وما يترتب عنه من قوة أو ضعف النفس ، وما ينجر عنه من عواقب لا تطاق ..

فجانب الجد يمثله ما يلي :

" المعتمد من أبرز ملوك الطوائف في الأندلس ، وأنه ضم مملكة قرطبة إلى مملكته إشبيلية ، واتسع سلطانه إلى أن بلغ مرسية " (2) .

فهذه دلالة الحزم والعزم والقوة ، وإن كان المصروع أخوه المسلم . ولعل سقوط دولة بأكملها ، بل حضارة راقية قائمة ، أدان لها العالم بأسره ، يجسده ويرسمه منحنى بياني ، نقطة بدايته تتدحرج من أعلى إلى أسفل . ويبدأ التدني مع بداية حادثة الحب التي أبتلي بها المعتمد .. حتى ينتهي

---

(1)دراسات في اللغة و الأدب و الحضارة :القسم الأول محمد الربداوي مؤسسة الرسالة.بيروت الطبعة الأولى 1980 ص 108.

(2) نفس المرجع ص 110 .

بهلاك نفسه وذويه وراعيته وكل من حوله ، وما تترتب عن الأحداث من ضياع الإمارة الإسلامية ، وسقوطها في يد أعدائه المناوئين له .. ولعل شابا من قراء هذه الصفحة ، يكون مسؤولا في المستقبل فيتعظ ، ويعتبر ...

ذات يوم جميل ، صاف ، انطلق الملك المعتمد مع وزيره على زورق صغير، وسط نهر ، في نزهة في أحضان الطبيعة ، تدفع التعب المثقل لِكاهل المسؤول الجاد في أداء مهامه ، وتوقظ الأحاسيس وترققها ، أو تلهب المشاعر وتفيضها . إن ساعة الاستجمام هذه لم تكن كباقي ساعات عمره .إنها لحظة المنعرج الحاسم الذي يسطر نمطا جديدا . فهو يمد بصره على مساحة الماء،فإذا بنسمات الريح الخفيفة تبعث في قلب سكون الماء ، تموجات مستديرة لطيفة ، فينطق في أعماق شاعريته الشطر الشعري الموافق للمقام والموقف :

صنع الريح من الماء زرد ... .

وينتظر من وزيره ابن عمار ، وقد كان شاعرا مثله ، أن يجيزه ، وذلك بأن يأتي بالشطر الثاني للبيت مكملا ما يقتضيه الحال من معنى مطابق ، بنفس الوزن والقافية ...

وتشاء الأقدار الإلهية التي هيأت الظروف ، وسببت الأسباب ، ورتبت اللقاء في نفس المكان والزمان ، وألهمت الفتاة التي كانت تغسل الثياب على ضفة النهر . بالقرب منهما تسمع الحوار . أن تنساب على إيقاع نبرات صوتها ، كلمات الشطر الثاني :

... . أي درع لقتال لو جمد

التفت إليها ، ففوجئ بجمال بهر نظره ، وفتن قلبه ، وهز عمق كيانه . فقد كانت الفتاة التي طابقت ذوقه ، بجمالها الفتان .. سأل عن حالها ، ثم خطبها وتزوجها .. وسماها اعتماد الرميكية ..

إن هذه المرأة التي امتحنتها الأقدار الإلهية ، وأفاء الله عليها بآلائه الواسعة ، حينما نقلها من أدنى مرتبة اجتماعية إلى أعلى هرم السلطة . تهيأت لها طفرة

واحدة دون استعداد نفسي ، أسباب النجاح والفلاح .. كان عليها أن تكثر من حمد الله تعالى ، وتذكر نعمته الجليلة التي حظيت بها ، بأن تساعده على ممارسة عمله ، بتوفير شروط الراحة وتدفعه بأنوثتها وسلوكاتها إلى تفعيل عنصر الجدية في نفسه ، قصد تمكين صفات الهيبة والوقار في ملكه ، فيحافظ عليه أو يدعمه ..

وأنى لها ذلك ، وتنشئتها الاجتماعية غذتها بتعظيم الحب ، واتخاذ جمالها ، مطية لتقوية نفوذها عند الملك ، ويبدو أنها عاشت نرجسية ، معجبة بنفسها ..

" يبدو أنها أحست بمنزلتها العظيمة عنده فأسرفت في الدلال " (1)

وقد أدركت أنها ملكت قلب زوجها حتى صار لا يرفض لها طلبا ، وصار عاجزا عن مفارقتها ، فاستكان إليها .. فعوض أن تمارس الحياة الجديدة السعيدة بإيجابية، ركنت إلى أعظم سلبية حينما أهملت مركزها الاجتماعي الجديد.بل عجزت عن ممارسة حياتها في نطاقه.. وكيف تفعل ذلك وقد ألفت الحياة البسيطة ، التي لا تتجاوز فيها مسؤوليتها حدود نفسها ..

وهي الزوجة الثانية في حياته ، فالأولى أنجب منها ثلاث بنات ،عوض أن يسخر هذا الحب في الحركة والنشاط ، ويندفع إلى الأمام ..اكتفى به و انطوى عليه ..

تذكر الكتب حادثة فريدة ، تدل على مدى تعلقه بها ، ورفضه تماما لإزعاجها أو مجرد رد طلبها ، حيث علم في يوم ماطر ، أنها اشتاقت إلى أيامها الأولى ، حينما كانت تسير مع الفلاحات ، على الطين ، حافية القدمين .. تلبية لرغبتها ، أمر بفرش فناء القصر بكل أنواع الطيب ، من مسك ، وعنبر ، وعطر،

---

(1) دراسات في اللغة و الأدب و الحضارة:القسم الأول محمد الربداوي مؤسسة الرسالة. بيروت الطبعة الأولى 1980 ص 110

حتى صار كالطين ، لتنزل مع جواريها تقضي يومها في نزهة طين .. هذه حادثة عجيبة من نوعها في الإسراف والترف ..

ويبدو أنها بتماديها في الغنج،أثارت حمية الفقهاء،ورجال السياسة من حولها :

" هذا الإسراف في الدلال وما يقابله من شغف المعتمد بها ، والانصياع لنزواتها جعل الفقهاء وكان سلطانهم في ذلك الزمان كبيرا . ورجال الدين يبغضونها، ويتهمونها بأنها هي التي ورطت المعتمد فيما ورطته به من الخلاعة والاستهتار،والانحراف عن عمود الدين،ولكن المعتمد ظل على شغفه بها." (2)

وقد ذكر عن الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . أنه حذر من خضراء الدمن،ولما سئل عنها ، أجاب بأنها المرأة الجميلة في منبت السوء .

ومما يدل دلالة تامة على شغفه بها ، أنه قال فيها ستة أبيات ، قيل أنها نقشت بماء الذهب في مخدعها ، وآثاره ما تزال قائمة في اشبيلية .

وقد جعل في كل أول بيت حرفا من حروف اسمها ، حتى شكلت حروف بداية الأبيات اسمها : اعتماد .

أَغَائِبَةُ الشَّخْصِ عَنْ نَاظِـرِيْ ... وَحَاضِرَةٌ فِي صَمِيْمِ ٱلْفُـؤَادِ

عَلَيْكِ السَّلاَمُ ، بِقَدْرِ الشُّجُونِ ... وَدَمْعِ الشُّؤُونِ وَقَدْرِ السُّهَادِ

تَمَلَّكْتِ مِنِي صَعْبَ الْمَـرَامِ ... وَصَادَفْتِ مِنِيِّ سَهْلَ القِيَـادِ

مُرَادِي أَعْيَـاكِ فِي كُلِّ حِيْنِ ... فَيَا لَيْتَ أَنِيِّ أُعْطَى مُرَادِي

أَقِيْمِـي عَلَى عَـهْدٍ فِي بَيْنِنَـا ... وَلاَ تَسْتَحِيْلِي لِطُـولِ البِعَادِ

دَسَسْتُ اسْمَكِ الحُلْوَ فِي طَيِّهِ ... وَأَلَّفْتَ مِنْهُ حُرُوفَ "اعْتِمَادِ"

---

(2) دراسات في اللغة و الأدب و الحضارة:القسم الأول محمد الربداوي مؤسسة الرسالة. بيروت الطبعة الأولى 1980 ص 110.

لعل القارئ الكريم ، يدرك يقينا ، الآن ، الدوافع الحقيقية التي جعلت الحضارات الجادة ، التي خلدت آثارها إلى يومنا بتأسيسها للمبادئ الفلسفية كالإغريقية ، تؤسس آدابها المسرحية على صراع الحب مع الواجب ، وتغلب الواجب على الحب ..

ولعل المعتمد بن عباد ركن إلى حبه ، وأغرق فيه ، فشغل بمعشوقه ، وبقدر التمادي في النشوة الغرامية ، بقدر الابتعاد كلية عن هموم واجبات السلطة ومتطلباتها ومقتضياتها ، من حضور نفسي وذهني دائمين ، وانشغال مستمر بشؤون الرعية ..

ولعل حب هذه المرأة الاسبانية الأصول ، دفعه إلى التعاطف مع ألفونسو على حساب إمارات إسلامية بالأندلس .

" ارتكب المعتمد خطأ سياسيا كبيراً لأنه تواطأ مع (ألفونسو السادس) ملك قشتالة على محاربة (بني ذي النون) .. وأبرم ألفونسو معاهدة سرّية منفردة كان من نتيجتها أن سقطت طليطلة من أيدي العرب ، وكان

سقوطها كارثة كبيرة ذات أبعاد هامة في تاريخ العرب في الأندلس " (1)

و لم يكتف ألفونسو بهذا بل رجع للمعتمد يصفى حساباته معه ، واستنجد– عندئذ – المعتمد بجيوش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين في معركة " الزلاقة "وانتصروا سنة 479 هـ . وسجن المعتمد في سجن " أغمات " قرب مراكش ،وبيعت بناته في سوق النّخّاسين ...

---

(1) دراسات في اللغة و الأدب و الحضارة:القسم الأول محمد الربداوي مؤسسة الرسالة.بيروت الطبعة الأولى 1980 ص 112

الحب بين السبب والنتيجة :

- فضلا عن الأسباب المذكورة سابقا -

عشق الأذن :

يَا قَوْمِ أُذْنِي لِبَعْضِ ٱلحَيِّ عَاشِقَةٌ وَالأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ ٱلعَيْنِ أَحْيَانَا

الوصف المفرط بدافع الإعجاب ، عنصر قوي مشجع على الحب .

قد يتعلق المرء من خلال ما يروى له من حكايات حول المحبوب من حيث جمال هيأته وحسن خلقته ، أو رقته ، وطريقة معاملته ..أو سماع روايات أخرى تنطبق مع ذوق المحب ورغبته .. فتستقر الفكرة الحاصلة في ذهنه ، وتبدأ قطرات الحلم في تدفق تدريجي ، ثم سرعان ما تنهمر كالمطر ، ويتكرر موقف التفكر،ثم يعتاد عليه ويألفه،حتى إذا ما استفاق اكتشف تعلق نفسه وقد صار عاشقا ..

ثم يضيف إلى مسمعه عن حالة المحبوب ما يروون عنه من قيم وصفات يحبها في المحبوب حتى تكتمل في مخيلته صورة المعشوقة كما يريدها مثالية خالية من الشوائب المنفرة ، والعيوب المسقطة ، فيغرق في عشق صورة موصوفة أضفى عليها الخيال ما يريد ..

الوشاة :

وَمَـاذَا عَسَى ٱلوَاشُونَ أَنْ يَتَحَدَّثُوا سِوَىَ أَنْ يَقُولُوا أَنَّنِي عَاشِقُ

نَعَمْ ، صَدَقَ ٱلوَاشُونَ ، أَنْتِ حَبِيْبَةٌ إِلَيَّ ، وَإِنْ لَمْ تَصِفْ مِنْكَ ٱلخَلاَئِقُ

قد يشفق الأصدقاء والأهل فيعذلون العاشق ، لما يرونه له من خير في اجتناب العشق والبحث عن بديل نافع ، فيرى ذلك موضع الشر حينما تنقلب لديه موازين القيم ...وقد يتدخل الوشاة و يوغروا عليه الصدور ، لكن ذلك لا

يزيده إلا عنادا وإصرارا على التمادي في التعلق والزيادة في الجهر بما يراه صوابا عنده ..

المنام :

خَيَالُ يَعْتَرِيْنِي فِي ٱلْمَنَـامِ لِسَكْرَى اللَّحْظِ ، فَاتِنَةَ ٱلْقِوَامِ
أَأَتَّخِذُ ٱلْعِرَاقَ هَوَى وَ دَارًا وَ مَنْ أَهْوَى فِي أَرْضِ الشَّـامِ

حينما يعجز العاشق عن لقاء الحبيب في الواقع ، وتواجهه ظروف الصد والمنع ، ويغلبه المجتمع أو الطرف الآخر في تحقيق رغبة التمتع بالرؤية . ينطوي على نفسه ، يفتش في أعماقه ، يبحث عن الصورة ، دائم التفكير فيها لتنجلي له في زيارة خاطفة تسلب العقل في المنام ،أو تروي ضمأ الشوق ، فيحقق في الحلم ما لفظته أسباب الواقع ..

النسيان والتذكر :

تَكَادُ تُضِيْءُ النَّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي إِذَا هِيَ أَذْكَتْهَا الصَّبَابَةُ وَٱلْفِكْرُ

قد يجتهد العاشق في تناسي صورة المحبوب ، ويبحث عن شاغل يشغله ، لكنه من حين لآخر يشعل الفكر فتيل الشوق فتحترق الجوانح بمشاعر الحرمان .

وقد ينعم العاشق بالنظر إلى المحبوب ، ولقائه في بداية مرحلة الحب وينتشي ، ويتلذذ متعة الحياة ، وهو قريب منه ، يرى محبوبه صباح مساء .. ويتمادى مع مرور الزمن في إشباع رغبته ، ولكنها كلما نعمت من متعة زاد طلبها أكثر حتى إذا بلغ مرحلة اللا رجوع عن المحبوب وأصبح ينظر من خلاله إلى حياته مجملة وإلى الوجود بكل تفاصيله،يتدخل القدر ويرميه برمح الفصال ، فلا يقدر ولا يطيق ، ويقضي أيامه متأسفا كئيبا ، جريحا ، دائم التفكير في تذكر تلك الأيام ، ولا يجد لها سبيلا .

إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا أُنْسًا بِقُرْبِكُمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا

وهكذا تجد العاشق ولهان ، لا يتحمل الصدمة والحرمان ، خاب حبه فكبر حزنه ، حمل إحساس اللوعة بين جوانحه فرضخ لواقعه .. فالمقصود قريب من الروح ، لكن بلوغه صعب بسبب المنع الذي يدعوه إلى التوحش والعزلة . وهذا رد فعل ذاتي يترجم الاستسلام للقدر المحتوم ، ويتدرج في رفض مجتمعه الذي رآه لا عقلاني حينما حرمه حبه .. فعقل الجماعة هنا خالف هوى النفس ورغبتها ، حينما عارض رغبة الفرد قمعا وقهرا .. ويقضي حياته مبغضا للوشاة الذين أوغروا عليه الصدور ..

لنلاحظ المجنون حينما تراكمت أحاسيس حب ليلى على فؤاده ، وتوغل شعور الهزيمة في باطنه ، كيف انشغل دائما بهواها ، وارتبط في صلة وجدانية لا منقطعة ، ووضعها موضع التقديس ، ونقل الحب من الواقعية المليئة بالعيوب والنقائص إلى مثالية لا تتحقق إلا في حلم ، وهذه الحالة من أخطر أمراض الحرمان ..

لنتابع كيف يتبرم على القدر ،ولا يصبر ،ويلقي بنفسه في جحيم السخرية والتهكم ..

أَرَانِي إِذَا صَلَّيْتُ يَمَّمْتُ نَحْوَهَا بِوَجْهِيْ ، وَإِنْ كَانَ المصَلَّي وَرَائِيـا
أُصَلِّي فَمَا أَدْرِيْ ، إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا أَثْنَتَيْنِ صَلَّيْتُ الضُّحَى أَمْ ثَمَانِيـا
وَمَا بِي إِشْـرَاكٌ ، وَلَكِنْ حَبُّهَـا كَعُودِ الشَّجَا أَعْيَى الطَّبِيْبَ الْمُدَاوِيَا
هِيَ السِّحْرُ ،إِلاَّ أَنَ لِلسِّحْرِ رُقْيَةٌ وَإِنِّ لاَ أُلْفِي لهَاَ الدَّهْـرَ رَاقِيَـا

اليأس والأمل :

تجد العاشق متقلب المزاج ،فاتر الأحوال ،مضطرب النفس ،يتقلب بين اليأس والأمل :

لَئِنْ حَالَ الْيَأْسُ دُونَ لَيْلَى ، لَرُبَّمَا أَتَى الْيَأْسُ دُونَ الْأَمْرِ وَهُوَ قَرِيْبُ

وفي موضع آخر :

وَ قَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتِيْتَيْنِ بَعْدَمَا يَظُنَّانِ جَهْدِ الظَّنِ أَنْ لاَ تَلاَقَيَا

ثم نجده يتبرم على الدنيا ويتمرد :

فَلاَ خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزُرْ حَبِيْباً ، وَ لَمْ يَطْرَبْ إِلَيْكَ حَبِيْبُ

الصلة الوجدانية الدائمة :

يرى شعراء الغزل أن كل بلية في الدنيا تهون إلا بلية الحب فهي عظيمة :

شُغِلْتُ عَنْ فَهْمِ ٱلحَدِيْثِ سِوَى مَـا كَانَ مِنْكِ ، فَإِنَّهُ شُغْلِي

وَ أُدِيْمُ لَحْظَ مُحَدِّثِي لِيَـرَى أَنْ قَدْ فَهِمْتُ ، وَعِنْدَكُمْ عَقْلِي

وتجدهم يتبرمون على القضاء ، لكنهم يعترفون بالبلاء :

قَضَاهَا لِغَيْرِي وَابْتَلاَنِي بِحُبِّهَا فَهَلاَّ بِشَيْءٍ غَيْرَ لَيْلَى ابْتَلاَنِيَا

من النفس إلى البدن :

بعد نشوة لا متناهية من لذة عارمة في أحضان الألفة والرؤية الدائمة التي تسعد الطرفين ، أو الطرف الذي مالت عليه كفة الحب .. يأتي الفراق المحتوم ، لينشب رمحه في القلب المكلوم .. وتنطلق رحلة المعاناة العارضة .. أو الأبدية الدائمة..وتبدأ مسيرة الحرمان وصاحبها معلق بين السماء والأرض ، ينظر إلى المستقبل فإذا هو المجهول ، وإلى الحاضر فإذا هو الشوق المتنامي كلما تنائى الطرفان ..

لا يرتاح العاشق إلا إذا رأى المعشوق ماثلا بين يديه ، وأنى له أن يراه وهو بعيد وآلاف الأستار تحجبه عنه ..فهو إذن كئيب ،قلق ،والكآبة انقباض جوارح،وضنى جوانح،وانسداد نفس..وكيف تنبسط روح وهواها مغلوب ..

إن هذا الشقاء النفسي ، يسد النفس عن الأكل والشرب ، والغذاء معنوي قبل أن يكون ماديا .. ويتدحرج الولهان في سقمه نحو نحافة الجسم ، حتى

يذوب الشحم ، وتشرع المعاناة في نخر البدن ، وحفر اللحم لتتآكل الأنسجة ، وتبقى الأعصاب التي تربط العظام .. ويبدو العاشق مجرد هيكل عظمي يلفه جلد، وينتقل من حال إلى حال ، ومن جو نفسي إلى جو آخر ، وتتغير ملامح وجهه الكالح ، وتتبدل الهيئة ..

لاحظ قول أبي نواس :

يَا وَيْحَ أَهْلِي أَبْلَى بَيْنَ أَعْيُنِهِـمْ عَلَى ٱلْفِرَاشِ ، وَمَا يَدْرُوْنَ مَاذا بي

لَوْ كَانَ زُهْدُكِ ، فِي الدُّنْيَا كَزُهْدِكِ فِي حُبِّي ، مَشَيْتِ بِلاَ شَكٍّ عَلَى الْمَاءِ

وهي حالة طبيعية مترتبة عن إنسان انساق وراء أهواء نفسه وهو يجهل نتائجه الوخيمة ولم يتعلم في صغره كيف يقيم معادلة حيوية بين عقله ورغبات نفسه ..

هذه الحالة واقع معيش صرح به الكثير منهم العباس بن الأحنف :

أَيَا فَوْزُ لَوْ أَبْصَرْتِنِ مَا عَرَفْتِنِ لِطُولِ شُجُونِي بَعْدَكُمْ وَشُحُوبِيْ

أو كم قال جميل :

تَعَلَّقْتُهَا وَ ٱلْجِسْـمُ مِنِّي مُصَحَّـحٌ فَمَا زَالَ حُـبُّ بُثْنَ وَأَضْعُــفُ

إِلَىَ اليَوْمِ حَتَّى سَلَّ جِسْمِيْ وَشَفَّنِي وَأَنْكَرْتُ مِنْ نَفْسِي الَّذِي كُنْتُ أَعْرِفُ

وقد كان الشاعر قوي البنية الجسمية ،ينعم بالحياة في صحة جيدة .. غرور الشباب ، واكتساب ثقة وهمية في النفس دون معرفة النتائج ، دفعه إلى الاعتقاد في الحب ، فصدق ثم انقلبت فضيلة الصدق إلى رذيلة ، ووجد نفسه بعيدا عن الشريعة حينما واصل تعلقه بأجنبية متزوجة .. فقد اختار ما كان محل هروب : الخوف من الانحراف . كما يعبر عن نحافة جسمه وسقمه بسبب الشوق والحرمان ..بل يعترف أنه كلما زاد هذا الحب ، نقص ميزان الجسم ..

ولعل المرأة أيضا تخدع ، فتقع في المزالق وتدفع الأثمان الباهضة ، المعيقة طيلة حياتها ، كما قال أحمد شوقي :

خَدَعُوْهَا بِقَوْلِهِمْ حَسْنَاءُ وَالغَوَانِي يَغُرُّهُمْ الثَّنَاءُ

نَظْرَةٌ ، فَابْتِسَامَةٌ ، فَسَلاَمٌ فَكَلاَمٌ ، فَمَوْعِدٌ ، فَلِقَاءُ

الوقــاية :

يبدو أن مقولة : " الوقاية خير من العلاج "مبدأ إسلامي في كل أحواله ، يجسده منهجه في صميمه ، ذلك أن دفع الأسباب يمنع وقوع الضرر .. ومن دواعي الوقاية في هذا الموضوع :

- أن يجتنب الشخص ، ذكراً كان أم أنثى ، سماع الحديث عن الطرف الأخر ، ولا سيما ما يثير فيه العواطف النائمة .. الوصف فتنة .. وعليه آلا يفتح قلبه على ما يشغله حسيا كان أم معنويا .. والإسلام يقي معتنقه من الوقوع في هذا الزلل ، والشاهد الذي يقاس عليه هو ما حرمه على المرأة من كشف عورتها أمام مثيلاتها في الحمام مثلا ، سدا لما يحتمل من نقل أوصاف عن مفاتنها الجسدية لرجال آخرين ،تثير غرائزهم ،وتجعلها مطلبهم ..

يكفي أن نذكر أن معظم القصص الغرامية التي أهلكت أصحابها ، حدثت بسبب ضعف الاتصال وقلته ، فأصبح عندهم النادر مطلوب ومرغوب .. وولد الحرمان كبتا نفسيا .

- العين هي مرآة القلب ، التي تعكس له الصورة المثيرة للذة ، والقلب هو ترجمانها الذي يجسد ملتقطاتها إلى مشاعر وجدانية،فمدارك،فسلوكات ..

كُلُّ ٱلْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِـنَ النَّظَرِ وَ مُعْظَمٌ مُسْتَصْغَرٌ مِنَ الشَّــرَرِ
كَمْ نَظْرَةً فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا فَتْكَ السِّهَــامِ بِلاَ قَوْسٍ وَلاَ وَتَرِ
وَ ٱلْعَبْدُ مَا دَامَ ذَا عَيْــنٍ يُقَلِّبُهَا فِي أَعْيُنِ الغِيْدِ مَوْقُوفٌ عَلَى ٱلْخَطَرِ
يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَا ضَـرَّ مُهْجَتَــهُ لاَ مَرْحَبًا بِسُرُورٍ عَــادَ بِالضَّرَرِ

- على المرء أن يتذكر أن عليه خالقه رقيب،يعلم أدق الأمور،وجزاؤه من جنس عمله .

- يدرك الشاب منذ البداية أنه لا يجوز له التفكير في الزواج ، إلا إذا حقق شروطه كاملة يصطلح عليها"بالباءة"،من مصدر رزق،ومأوى .. وما دام لم يبلغ هذا المستوى فعليه بشغل نفسه بالعلم والعمل والرياضة ومختلف الأنشطة المباحة المفيدة ، وأن يكثر من الصوم لأنه وقاية .

- عليه أن يملأ قلبه بذكر الله ، وليعلم أن الشاب الذي يقضي شبابه في عبادة ، يكون من السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ..

- أن يجتنب التفكير في الوقوع في الحب قبل الزواج ، مهما كانت المغريات والفتن .. أن يعيش بعقله ، مكبلا لهواه .

- أن يقنع نفسه أنه بعد اختيار شريكة الحياة ،لا يلتفت إلى غيرها أبدا ..فهي نصف الدين .

- إن حب زوجته وحدها وسيلة لحب الله ورسوله ، وهو الهدف .

الحبّ والزّواج ..في قلب الاستفهام..؟؟

موضوع "الحبّ والزّواج "يشغل كلّ الشّباب..ذكورا وإناثا..ويشكّل صورا قاتمة السّواد في أذهانهم بسبب جهلهم طرقه،ومشاربه..والعلاقة بينهما..

نحاول هنا أن نفسّر ما قدّرنا الله عليه..استجابة لطلبات بعضهم..بناء على ما ورد عن سادتنا أهل العلم..

1. الزّواج رزق:

قال سبحانه وتعالى :"وإذْ أخذَ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذرِّيتَهُمْ وأشْهَدَهم على أنفُسِهِمْ أَلسْتُ بربِّكُمْ قالوا بلى شهِدْنا أن تقولوا إنّا كُنّا عن هذا غافلين."الأعراف ،الآية172.

ولمّا كنّا مجرّد تلاميذ لسادتنا العلماء الأجلاّء ،فقد تناول الآية الكريمة الشيخ الفاضل "متولّي شعراوي" في خواطره القيّمة التي جمعت في عنوان كتاب "معجزة القرآن"،وأبلغنا أنّ الله سبحانه وتعالى كان سلفا . في عالم الذّرّ . قد جمعنا في حضرته ،وأشهدنا على رؤيته ،ثمّ بعثنا . في مرحلة الابتلاء . إلى حياتنا الدّنيا ليرى المصلح من المفسد..

ولمّا كنت أنا وأنت ،وغيرنا من كلّ البشر،قد شاهدنا الله . سبحانه وتعالى . ..فهذه دلالة على أنّه كان يعرف آباءنا وأمّهاتنا ،ونحن مسيّرون بحيث لم نخترهما..

كذلك . إن كانت لك ذرّية . فهو يعرف من أمّها أو من أبوها ..وبالمنطق الفصيح فأنت مهما بحثت عن زوجتك في النّهاية لن تقع إلاّ على من قدّرت لك لتنجب منها أولئك الأبناء..وأنتِ أيتها الأنثى مهما انتظرت الزّوج

،وتدلّلت ،وبحثت عن أحسنهم فلن تختاري . في النّهاية . إلاّ من قدّر منه الأبناء ..من هنا صار الزّواج رزق كباقي الأرزاق التي هي مادّية كالمال ،ومعنوية كالعلم ،ونسبة الذّكاء..و..

2. الزّواج سكن..مودّة..رحمة:

"ومن آياته أنْ خلَقَ لكم من أنفسكم أزواجا لتسْكنوا إليها ،وجعل بينكم مودّة ورحمةً ،إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون"الرّوم الآية:21.

أوّل من اشتاق إليه أبونا آدم . عليه السّلام . ،وحنّ إليه هو أنيس يؤنسه،وقريب يسمعه،وحبيب يسكنه،فكان أمر الله . سبحانه وتعالى . بخلق ثاني مخلوق على الإطلاق بعد آدم ،أمُّنا "حوّأء"،ولو شاء الله لخلقها مثله من طين ..ولكنّ خلْقها من ضلعه كانت فيه حكمة "من أنفسكم"للدّلالة على تنافذ الروحين في بعضهما لتشكّلان "زوجا"أي "إنسانا" هذا المثنّى الذي جاءت منه مفردة "إنس"..وكأنّ لقاء جنسين لا يقع إلاّ إذا تطابقت الصّفات ،والقيم،وتنافذت الرّوحان في بعضها..ليتحقّق "السّكن النّفسي"للطّرفين..وكأن الشّخص الواحد ناقص ،ولا يكمّله إلاّ الطّرف الآخر..

إنّ هذا الشّخص الذي يقضي المرء أيّامه الأولى يبحث عنه هو ما يصطلح عليه بـ"الرّوح التّوأمة"..ولمّا كان "الجزاء من جنس العمل" فإنّ الإنسان بحسب عفّته وتقواه يحصل على مبتغاه هذا ..طبقا لقاعدة "نسبة الصّدق تحدّد نسبة النّجاح" ..إلى درجة أنّ من أحبّ قبل الزّواج عوقب بطرف يعيش معه بجسده ،ويغيب عنه بروحه لأنه سلّمها لآخر..

إنّ هذا اللقاء يتمّ بتوفيق من الخالق..

وقد حثّنا مولانا على "التّفكّر" في سرّ الآية ،ليكتشف المتأمّل قوانين الزّواج

،فتكشف الآية عن منهجية كاملة ،من بدايتها إلى نهايتها في تناول النّفسية المؤمنة لمعاملة الطّرف الآخر..

. البحث عن الطّرف المناسب الذي نسكن إليه نفسيا .."إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون."

3. الحبّ ثمرة حرمان وشوق:

"قد شغفها حبّاً"آية من سورة يوسف عليه السلام،حينما يتعرّض لها العلاّمة الجليل "سيد قطب "يجزم أنّ لفظة"حبّ"وقعت هنا موقع الزّنا،وأنّها الآية الوحيدة التي تحدّثت عن علاقة الرّجل بالمرأة من بين 70آية ذكرت فيها كلمة"حبّ"..وقد وجدت أحسن تعريف على الإطلاق عند هذا العلاّمة حيث يعرّف "الحبّ" بأنّه ثمرة"حرمان وشوق"لأنّه حينما يوضع أمامك من تختار من طرف آخر للعشرة الزّوجية لا تعود محروما لذا يترجم إلى سكينة نفس ،ومودّة ورحمة..

هذا الحنين والشّوق يكون عند الحرمان .أمّا حينما يلتقي الطّرفان فيذوبان لتمتد روح المعاشرة إلى "مودّة" في المعاملة،و"رحمة"في توزيع الأدوار..

لهذه الأسباب حرّم الشّرع الحبّ قبل الزّواج لأنه قد يحبّ المرء ثم لا يحصل مراده في الزّواج بمن أحبّ فتنقلب سعادته إلى تعاسة أبدية..

الحب الحقيقي لله ولرسوله..

4. الإنجاب والعُقم بيد الله:

"لله ملك السّموات والأرض،يخلق ما يشاء،يهب لمن يشاءإناثا ،ويهب لمن يشاء الذّكورا49.أو يزوّجهم ذكرنا وإناثا،ويجعل من يشاء عقيما،إنّه عليم قدير50.الآيتين:49. 50.سورة الشّورى..

المراجـــــــع:

1- المصحف الشريف.

2- في ظلال القرآن : سيد قطب .

3- غصن الرسول : الحسين بن علي . د محمد فتح الله بدران . فؤاد على رضا . مؤسسة المعارف . بيروت .

4- دراسات في التصوف الإسلامي . د.محمد جلال شرف . دار النهضة العربية ط 1984

5- الطبقات الكبرى : الشعراني . ج1 .

6- تسهيل النظر و تعجيل الظفر . الماوردي .

7- الداء و الدواء . ابن قيم الجوزية . دار الشهاب . باتنة .

8- أيها الولد المحب . أبو حامد الغزالي . دار الشروق . ط4 . 1983 .

9- رابعة العدوية . دار الهدى . عين مليلة . الجزائر .

10- سيد قطب الأديب الناقد . عبد الله عوض الخباض .شركة الشهاب للنشر و التوزيع.

11- أقوال مأثورة للشيخ بوعمامة . الملتقى الوطني الثاني لمقاومة الشيخ بوعمامة .ولاية النعامة.

12- دراسات في اللغة والأدب و الحضارة . محمد الربداوي.القسم الأول. مؤسسة الرسالة .

13- الغزل : تاريخه و أعلامه . جورج غريب . دار الثقافة . بيروت .

14- الغزل العذري : يوسف اليوسف . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 1981.